

هذا هو الإسلام

(٢)

• السَّامَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ

• حَقِيقَةُ الْجِهَادِ... وَالْقِتَالِ... وَالْإِرْهَابِ

د. مُحَمَّدٌ عَمَّارٌ

مكتبة الشروق الدولية

هذا هو الإسلام

(٢)

* الساحة الإسلامية

* حقيقة الجهاد.. والقتال.. والإرهاب

الطبعة الأولى
١٤٢٦ هـ - ديسمبر ٢٠٠٥ م

مكتبة الشرق الدولية

٩ شارع السعادة - أبراج عثمان - زوكسى - القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٨ - ٤٥٠١٢٢٩ - ٢٥٦٥٩٢٩

Email: < shoroukintl @ hotmail. com >

< shoroukintl @ yahoo. com >

هذا هو الإسلام

(٢)

* السماحة الإسلامية

* حقيقة الجهاد.. والقتال.. والإرهاب

د. محمد عمارة

مكتبة الشرق الدولية

الفهرس

الصفحة

الموضوع

• السماحة الإسلامية •

٩	١ - السماحة : منهاج
١١	٢ - التأسيس القرآنى للسماحة الإسلامية
١٧	٣ - التطبيق النبوى للسماحة الإسلامية
٢١	٤ - وفى الخلافة الراشدة
٢٧	٥ - وفى التاريخ الإسلامى
٢٩	٦ - وشهد شاهد من أهلها
٣٦	الهوامش
٣٨	المصادر والمراجع

• حقيقة الجهاد.. والقتال.. والإرهاب •

٤٣	١ - تمهيد
٤٥	٢ - الحرب الدينية المقدسة
٥١	٣ - حقيقة الجهاد الإسلامى
٥٩	٤ - حقيقة القتال فى الإسلام
٧٥	٥ - حقيقة الإرهاب
٨٩	الهوامش
٩٣	المصادر والمراجع

السماحة الإسلامية

- ١ -

السماحة : منهاج

إن السماحة - التي تعني : المساهلة واللين في المعاملات ، والعطاء بلا حدود ، ودونما انتظار مقابل ، أو حاجة إلى جزاء . . إن هذه السماحة - في النسق الإسلامى - ليست مجرد كلمة تقال ، ولا شعار يرفع ، ولا حتى صياغة نظرية تأملية ومجردة ، كما أنها ليست مجرد فضيلة إنسانية ، يمنحها حاكم ويمنعها آخر . . وإنما هى دين مقدس ، ووحى إلهى . . وبيان نبوى لهذا الوحي الإلهى . . وتجسيد وتطبيق لهذا الدين فى دولة النبوة [١ - ١١ هـ ٦٢٢ - ٦٣٢ م] وفى دولة الخلافة الراشدة [١١ - ٤١ هـ ٦٣٢ - ٦٦١ م] . . وفى التاريخ الحضارى للشرق الإسلامى منذ ما قبل أربعة عشر قرناً ، وحتى هذه اللحظات . .

بل ، لأن هذه السماحة هى ثمرة للدين الخالد والشرعية الخاتمة ، فإنها ستظل منهاجاً للإسلام والمسلمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .



التأسيس القرآنى للسماحة الإسلامية

لقد بدأ القرآن الكريم فأسس للسماحة الإسلامية على قاعدة الرؤية الفلسفية الإسلامية للكون والوجود .

ففى هذا الوجود هناك : «حق» هو الله - سبحانه وتعالى - و«خلق» ، يشمل جميع عوالم المخلوقات . . هناك : «واجب الوجود» ، وهناك «الوجود» المخلوق «لواجب الوجود» . . وفى هذا التصور الفلسفى الإسلامى تكون «الواحدية والأحادية» فقط للحق . . الله - سبحانه وتعالى . . واجب الوجود . . . بينما تقوم كل عوالم الخلق - المادية . . والنباتية . . والحيوانية . . والإنسانية . . والفكرية - أى كل ما عدا الذات الإلهية ومن عدا الذات الإلهية على التعدد، والتنوع، والتمايز، والاختلاف . . باعتبار هذا التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف قانوناً إلهياً تكوينياً، وسنة من سنن الله التى لا تبدل لها ولا تحوّل . الأمر الذى يستلزم - لبقاء هذه السنة الكونية قائمة ومطردة - تعايش كل الفرقاء المختلفين، وتعارف جميع عوالم الخلق . . أى سيادة خلق السماحة فى العلاقات بين الأمم والشعوب، والثقافات، والحضارات، والمذاهب، والفلسفات، والشرائع، والملل، والديانات، والأجناس، والألوان، واللغات، والقوميات . . فبدون السماحة يحل «الصراع» - الذى ينهى ويلغى ويفنى التعددية - محل التعايش والتعارف . . الأمر الذى يصادم سنة الله - سبحانه وتعالى - فى الاختلاف والتنوع بكل عوالم المخلوقات . .

على هذه الرؤية الفلسفية الإسلامية للكون والوجود أقام الإسلام مذهبه فى السماحة، باعتبارها فريضة دينية، وضرورة حياتية، لتكون جميع عوالم الخلق على هذا النحو الذى أراده الله .

وفى التأسيس القرآنى لهذه الرؤية الفلسفية الإسلامية للكون والوجود، نقرأ فى آيات الذكر الحكيم :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣] . . فالإنسانية تتنوع إلى شعوب وقبائل . . والسماحة هى السبيل إلى تعايشها وتعارفها فى الإطار الإنسانى العام . .

وهذه الأمم والشعوب والقبائل تنوع أجناسها وألوانها وألسنتها ولغاتها - ومن ثم قومياتها - كآية من آيات الله ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافَ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢] . . والسماحة هى السبيل لتعايش الأجناس والقوميات فى إطار الحضارات الجامعة لشعوب هذه القوميات .

وهذه الأمم والشعوب تنوع دياناتها وتختلف مللها وشرائعها، وتتعدد مناهجها وثقافتها وحضاراتها، باعتبار ذلك سنة من سنن الابداء والاختبار الإلهى لهذه الأمم والشعوب . . وحتى يكون هناك تدافع وتسابق بينها جميعاً على طريق الحق وفى ميادين الخيرات ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨] ، ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ (١١٨) إلا من رَحِمَ رَبُّكَ وَلَئِذَاكَ خَلَقَهُمْ ﴿ [هود: ١١٨ ، ١١٩] - والمفسرون لهذه الآيات يقولون عن هذا الاختلاف وذلك التنوع وتلك التعددية فى الشرائع والمناهج والثقافات والحضارات، إنها علة الخلق . . وأن المعنى : «وللاختلاف خلقهم»^(١).

ويدون السماحة يستحيل تعايش هذه التعددية، التى هى علة الوجود، وسر التسابق فى عمران هذا الوجود .

وانطلاقاً من هذا الموقف القرآنى، الذى جعل هذا التنوع سنة إلهية وقانوناً كونياً، كان «العدل» - الذى هو معيار النظرة القرآنية وروح الحضارة الإسلامية - هو أساس السماحة الإسلامية فى التعامل مع كل الفرقاء المختلفين . . ففى التأسيس لهذه السماحة العادلة يطلب القرآن الكريم منا العدل مع النفس والذات . . ذلك ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ

أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿النساء: ٩٧﴾ .
ويطلب منا العدل مع الآخر ﴿فَلَذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ
بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ [الشورى: ١٥] ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ
غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ [النساء: ١٣٥] ، ﴿وَإِذَا
قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

[الأنعام: ١٥٢] .

بل ويوجب الله - سبحانه وتعالى - علينا العدل حتى مع من نكره ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ
لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨] ، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ
صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: ٢] .

بل ويوجب القرآن علينا العدل حتى مع من يعتدى علينا ويقاثلنا ﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ
فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] .

إن الإسلام ، لأنه دين ودولة ، وأمة وجماعة ، ونظام واجتماع ، ليس الدين الذي
يخلو من القانون ومن السلطة التي تعاقب المعتدين ، وتدين الجناة . . . ومع ذلك ، فإن
سماحته تدعو إلى العدل في رد العدوان وإنزال العقاب والجزاء ، بل وتفضل الصبر
الجميل على رد العقاب ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٢٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ
مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ
وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾

[النحل: ١٢٥ - ١٢٨] .

كذلك ، يوجب الإسلام علينا العدل في النظر إلى المخالفين لنا في الاعتقاد - الذي
هو سنة إلهية - ونحن مدعوون - وفق منهاج القرآن - ألا نضع كل المخالفين لنا في سلة
واحدة ، وألا نسلك طريق التعميم الذي يظلم عندما يغفل الفروق بين مذاهب هؤلاء

المخالفين ومواقفهم . . وإقامة لهذا المنهاج رأينا القرآن الكريم لا يعمم أبداً في حديثه عن أهل الكتاب وأصحاب العقائد والديانات ، وإنما يميز بين مذاهبهم وطوائفهم ، فيقول : ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتَ اللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٣] ، ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [آل عمران : ١٩٩] ، ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِقِنطَارٍ يُؤْذِهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤْذِهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٥] .

فالقاعدة القرآنية الحاكمة في التمييز - العادل - بين الفرقاء المخالفين لنا هي أنهم ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ﴾ [آل عمران : ١١٣] - صنع القرآن ذلك عندما ميز فرقاء اليهود ، فلم يعمم في الحكم على مجموعهم . . وصنع ذلك أيضاً في الحديث عن النصارى ، عندما ميز بين من هم أقرب مودة للمسلمين ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ﴾ ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون (٨٢) وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكذبنا مع الشاهدين (٨٣) وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين (٨٤) فأتاهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين ﴾ [المائدة : ٨٢ - ٨٥] .

لقد صنعوا ذلك وهم نصارى ، ولصنيعهم هذا لم يحبط الإسلام عملهم ، ولم يضعهم في سلة الآخرين - من النصارى - الذين أشركوا المسيح مع الله في الألوهية والربوبية والخلق ، فكفروا بالوحدانية التي جاء بها المسيح ﷺ ، عندما قالوا : ﴿ إِنْ الْمَسِيحُ هُوَ خَالِقُ كُلِّ الْأَشْيَاءِ . . وَإِنْ كُلُّ شَيْءٍ بِهِ كَانَ ، وَبِغَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ ، فَهُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ! ﴾ لقد كفر الذين قالوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ [المائدة : ٧٢] .

فلم يسو القرآن الكريم بين هؤلاء الفرقاء من النصارى . .

والمنطلق الإسلامى لهذا التمييز - المؤسس للعدل والسماحة - هو العدل الإلهى الذى هو فريضة إسلامية جامعة . . . فإله - سبحانه وتعالى - رب العالمين جميعاً ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] - وليس رب شعب بعينه دون سائر الشعوب . . . والتكريم الإلهى شامل لكل بنى آدم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] . . . ومعيار التفاضل بين البشر المكرمين هو التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ، ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣] ، وليس معيار التفاضل لوناً أو جنساً أو سلالة ، أو أية صفة من الصفات اللصيقة التى تستعصى على الاختيار والكسب والتغيير . . . ولذلك ، قال الله - سبحانه وتعالى - ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠] ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠] ، ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠] ، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴿[الزلزلة: ٧، ٨] ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] .

وتأسيساً على هذا العدل الإلهى ، أسس القرآن الكريم سماحة الإسلام فى النظر إلى موارث النبوات والرسالات التى سبقت رسالة رسولنا محمد بن عبد الله ﷺ . . . فالقرآن الكريم لم يأت نافياً لما سبقه من كتب ، وإنما جاء مصدقاً لها ، ومهيئاً عليها ، أى مشتملاً على ثوابتها ومستوعباً لأركان العقائد فيها ، ومضيفاً إليها ، ومصححاً لما طرأ عليها . . . فعلى حين كانت اليهودية تنكر النصرانية . . . وكانت النصرانية تنكر اليهودية ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ [البقرة: ١١٣] ، جاء القرآن الكريم مصدقاً لما بين يديه من الكتب السماوية السابقة ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١] ، ومؤكداً على أن ما أصاب بعض مواضع هذه الكتب لم يمح ما أودعه الله فيها من هدى ونور ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (٢) نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل (٣) من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان ﴿آل عمران: ٢-٤﴾ ، فالتوراة ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤] ، وكذلك

الإنجيل ﴿ وَقَفِينَا عَلَى آثارِهِمْ بَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة: ٤٦] - بل وطلب الإسلام من أهل الكتاب تحكيم كتبهم، ولم يطلب منهم نبذها ﴿ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴾ [المائدة: ٤٧]، ﴿ وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ﴾ [المائدة: ٤٨].

ذلك هو التأسيس القرآني للسماحة الإسلامية على الرؤية الفلسفية للكون والوجود، المحكومة بسنة التعدد والتنوع والتمايز والاختلاف، كقانون تكويني - أزلي أبدي - الأمر الذي يجعل السماحة ضرورة لازمة وفريضة واجبة لبقاء قانون التنوع والاختلاف عاملاً ومرعياً في عوالم المخلوقات والفلسفات والشرائع والديانات والثقافات والقوميات والحضارات.



التطبيق النبوي للسماحة الإسلامية

ولأن الإسلام هو الجامع والوارث لكل موارث النبوات، فلقد تفرد بالسماحة التي جعلته وحده المؤمن بكل الرسل والأنبياء، وبجميع الكتب والصحف والألواح، دون تفريق بين أحد من رسل الله، عليهم الصلاة والسلام ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله﴾

[البقرة: ٢٨٥]..

ولأن السنة النبوية هي التطبيق النبوي للبلاغ القرآني، رأينا احتفاء رسول الله ﷺ بكل الرسل والأنبياء.. فالوحي الذي جاء به في عقائد دين الله الواحد هو ذاته الوحي الذي أوحاه الله إلى الخالين من أصحاب الرسالات ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً﴾ ورسلنا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلنا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً [النساء: ١٦٣، ١٦٤].

وانطلاقاً من هذا البلاغ القرآني جاء التطبيق النبوي الذي يحتضن - بالإيمان - كل الرسل والأنبياء.. فهم جميعاً أبناء دين واحد، وشرائعهم - أمهاتهم - شتى: «الأنبياء إخوة من علات، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد» - رواه البخاري ومسلم وأبو داود.. ولذلك، خاطب الرسول ﷺ اليهود فقال: «نحن أحق وأولى بموسى منكم» - رواه البخاري ومسلم - وقال عن عيسى عليه السلام: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة». قالوا: كيف يا رسول الله؟.. قال: «الأنبياء إخوة من علات، وأمهم شتى، ودينهم واحد، فليس بيننا نبي» - رواه البخاري ومسلم وأبو داود والإمام أحمد.

وإبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء، الذي أقام مع إسماعيل عليه السلام قواعد البيت الحرام ليكون حرماً آمناً وقبله دائمة لأمة خاتم الأنبياء، الذي أحيت شريعته مناسك علة إبراهيم، وحنيفيته السمحة، التي تأسست عليها سماحة الإسلام: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥]، ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وفي أحاديث رسول الله ﷺ عن هذه السماحة، التي جسدها الإسلام، نقرأ: «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة» - رواه البخاري والإمام أحمد - «وأنى أرسلت بحنيفية سمحة» - رواه الإمام أحمد - . و«دخل رجل الجنة بسماحته» - رواه الإمام أحمد، و«إن الله يحب سمح البيع، سمح الشراء، سمح القضاء» - رواه الترمذي.

ولم يقف هذا التطبيق النبوي للسماحة القرآنية عند حدود السنة القولية، بل تحولت هذه السماحة - في التطبيق النبوي - إلى واقع معيش، وأخلاق وسجايا، فتنها وبقعتها دستور دولة النبوة - في المدينة المنورة - وفي العهود والمواثيق التي قطعها وكتبها رسول الله ﷺ لغير المسلمين.

ففي دستور دولة المدينة - الصحيفة - . الكتاب - أصبح الآخر الديني - اليهود - جزءاً من الذات - ذات الرعية الواحدة والأمة الواحدة - مع حرية الاعتقاد بالعبقيدة الجاحدة لشريعة الإسلام!! . . . ونص هذا الدستور على أن «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم» . . . ومن تبعنا من يهود فإن لهم النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم» . . . وأن بطانة يهود ومواليهم كأنفسهم» . . . وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة» . . . وأن بينهم النصح والنصيحة والبر المحض من أهل هذه الصحيفة دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه»^(٢).

وعندما جاء وفد نصارى نجران سنة ١٠ هـ سنة ٦٣١ م إلى مدينة رسول الله ﷺ ففتح لهم أبواب مسجد النبوة، فصلوا فيه صلاة عيد الفصح، مولين وجوههم إلى المشرق» . . . ثم تركهم وما يدينون^(٣)» . . . وعقد لهم عهداً عاماً دائماً، لهم ولسائر من يتدين بالنصرانية عبر الزمان والمكان» . . . ولقد جاء في هذا الدستور الذي تفردت به سماحة الإسلام دون كل الأنساق الفكرية والمواثيق الدستورية:

«ولنجران وحاشيتها، ولأهل ملتها، ولجميع من يتحل دعوة النصرانية فى شرق الأرض وغربها، قريبا وبعيها، فصيحها وأعجمها، جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله، على أموالهم، وأنفسهم، وملتهم، وغائبهم، وشاهدهم، وعشيرتهم، وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير. لا يُغيّر أسقف من أسقفية، ولا راهب من رهبانته. وأن أحرص دينهم وملتهم أين كانوا. . بما أحفظ به نفسى وخاصتى وأهل الإسلام من ملتى. .

ولا يُحملون من النكاح - [الزواج] - شططا لا يريدونه، ولا يكره أهل البنت على تزويج المسلمين، ولا يضاروا فى ذلك إن منعوا خاطبا وأبوا تزويجا؛ لأن ذلك لا يكون إلا بطيية قلوبهم، ومسامحة أهوائهم، إن أحبوه ورضوا به.

وإذا صارت النصرانية عند المسلم - [زوجة] - فعليه أن يرضى بنصرانيتها، ويتبع هواها فى الاقتداء برؤسائها، والأخذ بمعالم دينها، ولا يمنعها ذلك، فمن خالف ذلك وأكرمها على شىء من أمر دينها فقد خالف عهد الله وعصى ميثاق رسوله، وهو عند الله من الكاذبين.

ولهم - [أى النصرارى] - إن احتاجوا فى مرمة بيعهم وصوامعهم أو شىء من مصالح أمورهم ودينهم إلى رفق - [مساعدته] - من المسلمين وتقوية لهم على مرمتها، أن يُرفدوا على ذلك ويُعَاوَنُوا، ولا يكون ذلك دينًا عليهم، بل تقوية لهم على مصلحة دينهم، ووفاء بعهد رسول الله، وموهبة لهم، ومنة لله ورسوله عليهم.

. . لأننى أعطيتهم عهد الله أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، بالعهد الذى استوجبوا حق الزمام، والذب عن الحرمه، واستوجبوا أن يُذب عنهم كل مكروه، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم.

واشترط عليهم أمورا يجب عليهم فى دينهم التمسك بها والوفاء بما عاهدهم عليه، منها: ألا يكون أحد منهم عينا ولا رقبيا لأحد من أهل الحرب على أحد من المسلمين فى سره وعلانيته، ولا ينزلوا أوطانهم ولا ضياعهم ولا فى شىء من مساكن عباداتهم ولا غيرهم من أهل الملة، ولا يرفدوا - [يساعدوا] - أحداً من أهل الحرب على المسلمين، بتقوية لهم بسلاح ولا خيل ولا رجال ولا غيرهم، ولا يضائعهم.

وإن احتيج إلى إخفاء أحد من المسلمين عندهم، وعند منازلهم، ومواطن عباداتهم، أن يؤوهم ويرفدوهم ويواسوهم فيما يعيشون به ما كانوا مجتمعين، وأن يكتموا عليهم، ولا يظهروا العدو على عوراتهم، ولا يخلوا شيئاً من الواجب عليهم... (٤٤).

وعندما ذهب الصحابي حاطب بن أبي بلتعة [٣٥ ق هـ - ٣٠ هـ ٥٨٦ - ٦٥٠ م] حاملاً رسالة رسول الله ﷺ إلى المقوقس - عظيم القبط - بمصر [سنة ٧ هـ سنة ٦٢٨ م]، تجلت هذه السماحة الإسلامية في عبارات حاطب التي أعلنها أمام المقوقس، عندما قال له:

«إن لك ديناً - [أى النصرانية] - لن تدعه إلا إلى ما هو خير منه، وهو الإسلام الكافى به الله فقد ما سواه. وما بشاره موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا لك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل. ولسنا ننهك عن دين المسيح، ولكننا نأمرك به...» (٤٥).

وفى الخلافة الراشدة

ولقد امتدت هذه السماحة بامتداد الفتوحات الإسلامية - التى أقامت «الدولة» - . وتركت الناس أحراراً فى «الدين» . . فرأينا أبا بكر الصديق [٥١ ق هـ - ١٣ هـ ٥٧٣ م - ٦٣٤ م] يوصى أمير الجيش الذاهب إلى الشام «يزيد بن أبى سفيان» [١٨ هـ ٦٣٩ م] : «إنك ستجد قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله ، فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له» - رواء مالك فى الموطأ .

ووجدنا الراشد الثانى عمر بن الخطاب [٤٠ ق هـ - ٢٣ هـ ٥٨٤ - ٦٤٤ م] يكتب عهد الأمان - «العهد العمرى» - لأهل القدس - «إيليا» - عند فتحها سنة ١٥ هـ سنة ٦٣٥ م - الذى قرر فيه : «الأمان لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمتها وبريئتها وسائر ملتها ، وأنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ولا من شىء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم . ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود» [وفق ما طلبوا] - وعلى أهل إيليا أن يخرجوا منها الروم واللصوص . فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن . . ومن أحب من أهل إيليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم ، ويخلى بيعهم وصلبهم ، فإنهم آمنون على أنفسهم وبيعهم وصلبهم ، حتى يبلغوا مأمنهم . . وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله ، وذمة الخلفاء ، وذمة المؤمنين . .»^(٦) .

بل لقد امتدت هذه السماحة الإسلامية من إطار التعامل مع أهل الديانات السماوية - اليهود والنصارى - إلى أهل كل العقائد والديانات ، فشملت المتدينين بالديانات الوضعية من أهل البلاد التى دخلت فى الدولة الإسلامية . . وعندما فتحت فارس - وأهلها مجوس . . عبدة للنار - سأل عمر بن الخطاب [٤٠ ق هـ - ٢٣ هـ ٥٨٤ -

٦٤٤م] مجلس الشورى - مجلس السبعين - عن الموقف من أهل هذه الديانات غير السماوية :

- كيف أصنع بالمجوس؟

فوثب عبد الرحمن بن عوف [٤٤ ق هـ - ٣٢ هـ - ٥٨٠ - ٦٥٢ م] فقال :

- أشهد على رسول الله ﷺ أنه قال : «سئوا فيهم سنة أهل الكتاب»^(٧).

إن الإسلام لم يطلب - ولا يطلب - سوى حرية الدعوة ، ليحاور ويجادل بالتي هي أحسن - وليس فقط بالذي هو حسن - «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن» [التحل : ١٢٥] ، وليقول للمخالفين : «هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين» [البقرة : ١١١] ، «هل عندكم من علم فتخرجوه لنا» [الأنعام : ١٤٨] ، «أو آفارة من علم» [الأحقاف : ٤] .

والإسلام لم يفرض على منكره وجاحديه والكافرين به عقوبة دنيوية ، وإنما أعلن أن حسابهم على الله يوم الدين . . . ولذلك ، قال - الإسلام - حتى للمشركين الذين أشركوا الأوثان والأصنام مع الله - سبحانه وتعالى - : «ولا أنا عابد ما عبدتم» ولا أنتم عابدون ما أعبد» لكم دينكم ولي دين» [الكافرون : ٤ - ٦] .

وعندما أصبحت للإسلام دولة وسلطة ومؤسسات عقابية تعايش مع المنافقين في المدينة - وهم أخطر من الكفار المعلنين - وفي هذه الحقيقة يقول الإمام محمد بن جرير الطبري [٢٢٤ - ٣١٠ هـ - ٨٣٩ - ٩٢٣ م] : «لقد جعل الله الأحكام بين عباده على الظاهر؛ وتولى الحكم في سرائرهم دون أحد من خلقه ، فليس لأحد أن يحكم بخلاف ما ظهر ، لأنه حكم بالظنون ، ولو كان ذلك لأحد لكان أولى الناس به رسول الله ﷺ ، وقد حكم للمنافقين بحكم الإسلام بما أظهروا ، ووكل سرائرهم إلى الله . . . وقد كذب الله ظاهرهم في قوله : «والله يعلم أنك لرَسُولُهُ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون» [المنافقون : ١]^(٨) .

وحتى عندما كانت فلتات اللسان تظهر عما في البواطن - بواطن المنافقين - فيطلب

بعض الصحابة عقابهم، كان رسول الله ﷺ يرفض إقامة العقاب الديني عليهم، ويقول: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه». وكما يقول ابن القيم [٦٩١- ٧٥١هـ ١٢٩٢- ١٣٥٠م]: «فإن نفاق عبد الله بن أبي [٩هـ ٦٣٠م]، وأقواله في النفاق كانت كثيرة جداً، كالمتواترة عند النبي ﷺ وأصحابه، وبعضهم - [أي بعض المنافقين] - أقر بلسانه، وقال: «إنما كنا نخوض ونلعب»، ولما قيل للنبي ﷺ: ألا تقتلهم؟ قال: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»^(٩).

ولم يقيم رسول الله ﷺ حداً ولا عقوبة دينية على الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا. . . ولا على الذين آمنوا وجه النهار وكفروا آخره. . . ف «لا إكراه في الدين» [البقرة: ٢٥٦]. . . لأن الإكراه يشمر نفاقاً، ولا يشمر إيماناً، إذ الإيمان تصديق قلبي يبلغ مرتبة اليقين، فاجتماعه مع الإكراه مستحيل. . . وما الردة والزندقة والإلحاد إلا أمراض تعثرى العقل - كالأمرض العضوية التي تعثرى البدن - وعلاج الأولى بالحوار مع العلماء، وطلب الهداية والشفاء عند الهداة والحكماء. . . كما أن علاج الأمراض العضوية هو من اختصاص الأطباء، لا المؤسسات العقابية للدولة. . . ولذلك، جعل القرآن الكريم عقوبة الردة عن الدين أخروية، لا دنيوية «ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» [البقرة: ٢١٧]. «يا أيها الذين آمنوا من يرتدد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم» [المائدة: ٥٤].

ولم يقيم رسول الله ﷺ وهو رأس الدولة - حداً على مرتد إلا في الحالة الواحدة التي لم يقف فيها الأمر عند الردة عن الدين، وإنما بلغ الأمر مرتبة الخرابية والخروج المسلح على الأمة والدولة. . . فالنفر الذين اغتصبوا إبل الصدقة - مال الدولة - وقتلوا الغلمان الذين كانوا يرعون هذه الإبل - عمال الدولة - ومثلوا بجششهم، وارتدوا عن الإسلام، قد ارتكبوا جريمة مركبة، صنفها الإسلام تحت حد الخرابية، وليس في باب الردة، وذلك عندما نزل في هؤلاء النفر قول الله - سبحانه وتعالى -: «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم

من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم (٣٣) إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم» [المائدة : ٣٣ - ٣٤].

ولهذه الحكمة، جاء تصنيف «باب الردة» - في الفقه الإسلامي - ضمن «كتاب الخرابة». . . وقال كثير من الفقهاء - ومنهم علي بن أبي طالب [٢٣ ق هـ - ٤٠ هـ - ٦٠٠ م]، وابن عباس [٣ ق هـ - ٦٨ هـ - ٦١٩ م - ٦٨٧ م]، والحسن البصري [٢١ - ١١٠ هـ - ٦٤٢ م]، وسفيان الثوري [٩٧ - ١٦١ هـ - ٧١٦ م - ٧٧٨ م]، وأبو حنيفة [٨٠ - ١٥٠ هـ - ٦٩٩ م - ٧٦٧ م]، وأصحابه، وعطاء [٢٧ - ١١٤ هـ - ٦٤٧ م - ٧٣٢ م]، وابن شبرمة [١٤٤ هـ - ٧٦١ م]، وابن علية [١١٠ - ١٩٣ هـ - ٧٢٨ م - ٨٠٩ م] - قالوا إن المرأة المرتدة لا يقام عليها الحد، لأنها غير محاربة، فلم تحقق الخرابة في ردتها^(٩٤).

فالردة، إذا كانت مجرد اختيار فكري ذاتي، فإنها تدخل في حرية الاعتقاد. . . وتعالج بالحوار؛ ذلك أنها مرض، والمرض لا يعالج بالعقاب. . . وكما يقول الإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ - ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م]: «فإن الرجوع عن الإيمان إلى الكفر يشبه الآفة تصيب المخ والقلب فتذهب بالحياة، فإن لم يمت المصاب بعقله وقلبه، فهو في حكم الميت، لا يتنفع بشيء، وكذلك الذي يقع في ظلمات الكفر بعد أن هدى إلى نور الإيمان، تفسد روحه، ويظلم قلبه، فيذهب من نفسه أثر الأعمال الصالحة الماضية، ولا يعطى شيئاً من أحكام المسلمين الظاهرة، فيخسر الدنيا والآخرة. . .»^(٩٥).

فالمريض لا يعالج بالقتل، وإنما يعالج بوسائل العافية والشفاء، وهي - هنا - المحاور، وإقامة الحجج، وإزالة الشبهات.

وكما يقول صاحب [فقه السنة]: «فإن الردة كثيراً ما تكون نتيجة الشكوك والشبهات التي تساور النفس وتزاحم الإيمان، ولا بد أن تنهياً فرصة للتخلص من هذه الشبهات والشكوك، وأن تقدم الأدلة والبراهين التي تعيد الإيمان إلى القلب، واليقين إلى النفس، وتزيح ما علق بالوجدان من ريب وشكوك، ومن ثم كان من الواجب أن يستتاب المرتد ولو تكررت رده، ويمهل فترة زمنية يراجع فيها نفسه، وتفقد فيها وساوسه، وتناقش فيها أفكاره».

وإذا كان بعض العلماء قد حددوا مدة الاستتابة - الخوار - بثلاثة أيام - «فلقد نقل ابن بطال البطلينوسى [٤٠٠هـ - ١٠١٣م] عن الإمام على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - أن المرتد يستتاب شهراً . . وعن النخعى [٤٦ - ٩٦هـ - ٦٦٦ - ٧١٥م] أنه يستتاب أبداً . فالمرضى . . والعلاج لهذا المرض ، لا يختص بمدة محددة ، يبدأ بعدها قتل المريض ! وإن سماحة الإسلام ، فى حرية الاعتقاد ، يكفى فيها قول الإمام مالك رحمته الله [٩٣ - ١٧٩هـ - ٧١٢ - ٧٩٥م] : «إن من صدر عنه ما يحتمل الكفر من تسعة وتسعين وجهاً ، ويحتمل الإيمان من وجه ، حُمل أمره على الإيمان»^(١١) .



أما إذا كانت الردة مصحوبة بدعوة إلى نشر الإلحاد ، وإشاعة الزندقة ، ونقض الإيمان الدينى فى المجتمع ، فإنها تصبح لوئاً من الخربة ، والخروج على الجماعة ، وهدم الإيمان الدينى ، الذى هو ركن من أركان الاجتماع ، يجب على الدولة الإسلامية حمايته ، ومنع نشر الجرائم التى تفتك به ، كما يجب عليها منع نشر جرائم الأمراض العضوية ، حفاظاً على مقومات الاجتماع الإسلامى وصحته وعافيته .

إن نشر الجرائم - الفكرية أو العضوية - ممنوع . . أما العلاج من آثار هذه الجرائم فهو واجب ، وغير موقوف . . وكما يقول الإمام محمد عبده : «فلقد قال قائلون من أهل السنة : إن الذى يستقصى جهده فى الوصول إلى الحق ، ثم لم يصل إليه ، ومات طالباً غير واقف عند الظن ، فهو ناج . فأى سعة لا ينظر إليها الحرج أكمل من هذه السعة؟»^(١٢)

وهذا الذى قاله قائلون من أهل السنة ، ليس مجرد اجتهاد ، وإنما هو تأسيس على قول الله - سبحانه وتعالى - : «وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون» [التوبة : ٦] .

فالإسلام لا يطلب سوى الحرية ، التى تمكن أهله من تبليغ الدعوة ، وإقامة الحججة ، وإزالة الشبهات . . ثم يترك الناس وما يدينون . . ولو أن المشركين - فى مكة والجزيرة العربية - تركوا للإسلام هذه الحرية لما نشبت معركة ، ولا حدثت غزوة ، ولا سالت قطرة من دماء .

ذلك أن الإسلام وحده هو الذي تفرد بنظرة متميزة إلى القتال ، وذلك عندما رآه الاستثناء المكروه ، وليس القاعدة والجبلة والغريزة المحققة للتقدم - كما قالت بذلك الكثير من الفلاسفات - ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦] ، ولقد صدق على هذه الفلسفة القرآنية المتميزة - وشرحها الحديث النبوي الذي يقول فيه رسول الله ﷺ : « لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاثبتوا ، وأكثرُوا ذكر الله » - رواه الدارمي .

ولأن هذا هو موقف السماحة الإسلامية من المخالفين في الاعتقاد ، فلقد جاء حديث القرآن الكريم عند الإذن بالقتال . . والتحريض عليه . . دائماً وأبداً في سياق الحديث عن صد عدوان الذين اعتدوا على المؤمنين ففتنوهم في دينهم ، وأخرجوهم من ديارهم ، وظاهروا على إخراجهم من أوطانهم ، لا لشيء إلا لإيمانهم بالإسلام ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأْنَهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (٣٩) الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴿ [الحج: ٣٩ - ٤٠] .

فحرية الدعوة والضمير ، وحرية الوطن الإسلامي هما معيار «الولاء» و«البراءة» ، و«السلام» و«الحرب» بين المسلمين وغير المسلمين . . وفي التععيد لهذه القاعدة الكلية جاء آيات القرآن الكريم : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٧) لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين (٨) إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴿ [الممتحنة: ٧ - ٩] .

وفى التاريخ الإسلامى

وإذا كان المسلمون قد فتحوا فى ثمانين عامًا، أوسع مما فتح الرومان فى ثمانية قرون . . فإن كل معارك الفتوحات الإسلامية قد وقعت عند تحرير الشرق من قهر القوى الاستعمارية - وخاصة الروم - الذين استعبدوا الشرق وقهروه - ومن قبلهم الإغريق - عشرة قرون - من الإسكندر الأكبر [٣٥٦ - ٣٢٤ ق م] - فى القرن الرابع قبل الميلاد . . وحتى هرقل [٦١٠ - ٦٤١ م] - فى القرن السابع بعد الميلاد .

وقفت كل معارك الفتوحات الإسلامية، عند تحرير الشرق من هذا القهر السياسى والدينى والثقافى والحضارى، ولم تحدث معركة واحدة بين الجيوش الإسلامية وبين أهل البلاد الشرقية، التى شهدت معارك تلك الفتوحات . . بل لقد حارب أهل تلك البلاد وساعدوا جيوش الفتوحات الإسلامية - ضد الفرس والروم - وهم على دياناتهم القديمة . . حدث ذلك بمصر، والشام، والعراق . .

وعندما تم تحرير هذه البلاد، تركت الدولة الإسلامية شعوب تلك البلاد وما يدينون، حتى إن الذين دخلوا فى الإسلام - من أهل مصر والشام وفارس - بعد قرن من الفتح لم يزدوا على ٢٠٪ من السكان! . . ^(١٣) فكانت الدولة الإسلامية حارسة للأرض المحررة من الروم المتربصين - الذين ظلوا يجيشون الجيوش لإعادة اختطاف الشرق حتى فتح القسطنطينية [٨٥٧ هـ ١٤٥٣ م] - كما ظلت هذه الدولة الإسلامية حارسة لحرية الضمير والاعتقاد الدينى، الذى سبق وفهره الرومان عشرة قرون! . .

ولقد شهد بهذه الحقيقة - حقيقة سماحة الإسلام مع ديانات شعوب البلاد التى دخلت فى دولة الإسلام - التاريخ والمؤرخون . . وغير المسلمين منهم قبل المسلمين .

فهذا الفتح الإسلامى هو الذى أنقذ المسيحية الشرقية من الإبادة والزوال ، حتى
ليمكن أن نقول - دون مبالغة - إن بقاء هذه المسيحية الشرقية حتى الآن إنما هو هبة
الإسلام وسماحة الإسلام .

فعمر بن العاص [٥٠ ق هـ - ٤٣ هـ ٥٧٤ - ٦٦٤ م] هو الذى أمّن البطريرك المصرى
« بنيامين » [٦٥٩ - ٣٩٩ م] على حريته ، وأعادته إلى شعبه بعد ثلاثة عشر عاماً من الهرب
والاختفاء عن أعين الرومان . . وهو الذى حرر كنائس نصارى مصر وأديرتهم من
الاغتصاب الرومانى ، لا ليجعلها مساجد ، وإنما ليردها لأصحابها النصارى يتعبدون
فيها بحرية . للمرة الأولى فى تاريخ النصرانية المصرية ! . . ومع تحرير الأرض . .
والكنائس والأديرة . . حرر عمرو بن العاص - لأنه مسلم - ضمائر الشعوب التى
أدخلتها الفتوحات فى دولة الإسلام . لأول مرة فى تاريخ نصرانية تلك الشعوب ! بعد
أن كان الرومان يقدمونهم طعاماً للنيران والأسود ! ! . .



وشهد شاهد من أهلها

وإذا كانت نجة النصرانية الشرقية من الإبادة الرومانية هي الشاهد المادى - الأصدق - على حقيقة السماحة الإسلامية . . فإن المؤرخين النصارى - من الشرق والغرب . . القدماء والمحدثين - قد شهدوا - هم أيضاً - لهذه السماحة الإسلامية .

ففى أقدم كتب التاريخ النصرانية حديث عن سماحة عمرو بن العاص مع نصارى مصر ، وكيف أن تحرير الإسلام لهم من قهر الرومان ، وهزيمة الاستعمار الرومانى بمصر على يد الجيش الإسلامى الفاتح إنما كان انتقاماً إلهياً من ظلم الرومان لمصر واضطهادهم لنصارى مصر . . ففى تاريخ "يوحنا النقيوسى" - وهو معاصر للفتح وشاهد عليه - :

«إن الله ، الذى يصون الحق ، لم يهمل العالم ، وحكم على الظالمين ، ولم يرحمهم لتجرئهم عليه ، وردهم إلى يد الإسماعيليين - [العرب المسلمين] - ثم نهض المسلمون وحازوا كل مدينة مصر . . وكان هرقل حزينا . . وبسبب هزيمة الروم الذين كانوا فى مدينة مصر ، وبأمر الله الذى يأخذ أرواح حكامهم . . مرض هرقل ومات . . وكان عمرو - [بن العاص] - يقوى كل يوم فى عمله ، ويأخذ الضرائب التى حدددها ، ولم يأخذ شيئاً من مال الكنائس ، ولم يرتكب شيئاً ما ، سلباً أو نهباً ، وحافظ عليها - [الكنائس] - طوال الأيام . .» (١٤)

إنها شهادة شاهد عيان . . نصرانى . . على هذه السماحة الإسلامية ، التى تجسدت على أرض الواقع ، ومتى ؟ . . قبل أربعة عشر قرناً من الزمان ! . . وهى سماحة نابعة من الدين الإسلامى . . وليست كحقوق المواطنة ، التى لم تعرفها المجتمعات العلمانية إلا على أنقاض الدين ! ! . .

وبعدما استقبل عمرو بن العاص البطريرك القبطي «بنيامين»، وأمنه على نفسه وكنائسه ووعيته وحرية عقيدته - بل وطلب منه أن يدعو له! - أخذ «بنيامين» في زيارة كنائسه، وفي إعادة افتتاحها. وكان الناس يستقبلونه فرحين. مرددين العبارات التي تشهد على أن هذا الفتح الإسلامي إنما هو عقاب إلهي للرومان جزاء الظلم الذي أوقعوه بالنصارى المصريين.

وعن هذه الحقيقة من حقائق سماحة التحرير الإسلامي لشعوب الشرق، يقول الأسقف «يوحنا النقيوسي» في أقدم تاريخ للفتح الإسلامي لمصر: «كتبه شاهد عيان:

ودخل الأنبا «بنيامين» بطريرك المصريين مدينة الإسكندرية، بعد هربه من الروم في العام ١٣ - [أي العام الثالث عشر من تاريخ هروبه] - وسار إلى كنائسه، وزارها كلها، وكان كل الناس يقولون: هذا النفي، وانتصار الإسلام، كان بسبب ظلم هرقل الملك، وبسبب اضطهاد الأرثوذكسيين على يد البابا «كيرس» - [البتريك المعين من قبل الدولة الرومانية في مصر] - وهلك الروم لهذا السبب، وساد المسلمون مصر...»^(١٥).

ولقد عبر الأنبا «بنيامين» عن الأمان الذي أحلته سماحة الإسلام بمصر، على أنقاض القهر والاضطهاد اللذين مارسهما الرومان - النصارى - ضد نصارى مصر! فقال وهو يخطب في دير «مقاريوس»:

«لقد وجدت في الإسكندرية زمن النجاة والطمأنينة اللتين كنت أنشدهما، بعد الاضطهادات والمظالم التي قام بتمثيلها الظلمة المارقون»^(١٦).

أما رجل الدين المسيحي - القبطي - «ميخائيل السرياني»، فإنه يقول عن تحرير الفتح الإسلامي للنصرانية المصرية، وعن سماحة الإسلام مع نصارى مصر:

«لم يسمح الإمبراطور الروماني لكنيستنا المونوفيزية - [القائلة بالطبيعة الواحدة للمسيح] - بالظهور، ولم يصغ إلى شكاوى الأساقفة فيما يتعلق بالكنائس التي نهبت، ولهذا، فقد انتقم الرب منه.

لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا وأديرتنا بقسوة بالغة، واتهمونا دون شفقة، ولهذا جاء إلينا من الجنوب أبناء إسماعيل لينقذونا من أيدي الرومان، وتركنا العرب نخارس عقائدنا بحرية، وعشنا في سلام»^(١٧).

تلك شهادات شهود العيان . . ورجال الدين النصارى ، تقول : إن الفتوحات الإسلامية كانت «الإنقاذ» لشعوب تلك البلاد ودينهم من انقهر الروماني . . وإن سماحة الإسلام كانت آية من آيات الله ، انتقم الله بها من مظالم الرومان ! . . حتى لقد اعتبروا مرض هرقل وموته - وزوال الإمبراطورية الشرقية للرومان - و«سيادة الإسلام» في مصر والشرق آية من آيات الله ! . .

أما المستشرق الإنجليزي الحجة سيمر توماس أرنولد [١٨٦٤ - ١٩٣٠ م] - وهو أبرز من أرخ لانتشار الإسلام ، في كتابه [الدعوة إلى الإسلام] - فإنه يؤكد على حقيقة السماحة الإسلامية ، فيقول :

«إنه من الحق أن نقول : إن غير المسلمين قد نعموا ، بوجه الإجمال ، في ظل الحكم الإسلامي ، بدرجة من التسامح لا تجد لها معادلاً في أوروبا قبل الأزمنة الحديثة . وإن دوام الطوائف المسيحية في وسط إسلامي يدل على أن الاضطهادات التي قاست منها بين الحين والآخر على أيدي المتزمتين والمتعصبين ، كانت من صنع الظروف المحلية ، أكثر مما كانت عاقبة مبادئ التعصب وعدم التسامح . .» (١٨) .

بل لقد زحف رهبان النصرانية المصرية من الأديرة والمغارات التي كانوا هاربين فيها من الاضطهاد الروماني . . زحفوا للقاء عمرو بن العاص ، حتى «ليروى أنه خرج للقاءه من أديرة وادي النطرون سبعون ألف راهب ، بيد كل واحد عكاز ، فسلموا عليه . وأنه كتب لهم كتاباً - بالأمان] - هو عندهم» (١٩) .

وفي شهادة قبطية حديثة ، تأكيد على سماحة الإسلام مع نصارى مصر - في شئون الدين والدنيا جميعاً - وفيها يقول «يعقوب نخلة» [١٨٤٧ - ١٩٠٥ م] - صاحب كتاب [تاريخ الأمة القبطية] - :

«ولما ثبت قدم العرب في مصر ، شرع عمرو بن العاص في تطمين خواطر الأهليين واستمالة قلوبهم إليه ، واكتساب ثقتهم به ، وتقريب سراة القوم وعقلائهم منه ، وإجابة طلباتهم .

وأول شيء فعله من هذا القبيل : استدعاء «بنيامين» البطريك ، الذي اختفى من أيام هرقل ملك الروم ، فكتب أماناً وأرسله إلى جميع الجهات يدعو فيه البطريك

للحضور، ولا خوف عليه ولا تثريب، ولما حضر، وذهب لمقابلته ليشكره على هذا الصنيع، أكرمه، وأظهر له الولاء، وأقسم له بالأمان على نفسه وعلى رعيته، وعزل البطريك الذى كان أقامه هرقل، ورد «بنيامين» إلى مركزه الأصلي معززاً مكرماً. . وكان «بنيامين» موصوفاً بالعقل والمعرفة والحكمة حتى سماه بعضهم (بالحكيم). . وقيل إن عمرو لما تحقق ذلك منه، قربه إليه، وصار يدعوه فى بعض الأوقات ويستشيريه فى الأحوال المهمة المتعلقة بالبلاد وخيرها، وقد حسب الأقباط هذا الالتفات منة عظيمة وفضلاً جزيلاً لعمرو.

واستعان عمرو فى تنظيم البلاد بفضلاء القبط وعقلائهم على تنظيم حكومة عادلة تضمن راحة الأهالى، فقسم البلاد إلى أقسام يرأس كلأ منها حاكم قبطى ينظر فى قضايا الناس ويحكم بينهم، ورتب مجالس ابتدائية، واستئنافية مؤلفة من أعضاء ذوى نزاهة واستقامة، وعين نواباً من القبط ومنحهم حق التداخل فى القضايا المختصة بالأقباط والحكم فيها بمقتضى شرائعهم الدينية والأهلية، وكانوا بذلك فى نوع من الحرية والاستقلال المدنى، وهى ميزة كانوا قد جردوا منها فى أيام الدولة الرومانية. .

وضرب - [عمرو بن العاص] - الخراج على البلاد بطريقة عادلة. . وجعله على أقساط، فى آجال معينة، حتى لا يتضايق أهل البلاد.

وبالجملـة، فلإن القبط نالوا فى أيام عمرو بن العاص راحة لم يروها من أزمان. .^(٢٠)

هكذا تعلن هذه الشهادة القبطية - التى نشرتها، فى طبعتها الثانية، المؤسسة مارمرقس لدراسة التاريخ - أن الفتح الإسلامى والسماحة الإسلامية قد حررا الأرض. . والضمير. . والإنسان. . فأصبحت حكومة مصر لنصارى مصر، لأول مرة فى تاريخ النصرانية المصرية. . كما حققت السماحة الإسلامية العدل فى الاقتصاد والاجتماع. . وجعلت الحاكمية لشرائع القبط الدينية والأهلية - فيما هو خاص بأحوالهم الدينية. . التى تركوا فيها وما يدينون.

وحتى يحافظ الأقباط على نعمة هذا التحرير وهذه السماحة الإسلامية، فلقد هبوا - عندما عاد الرومان إلى احتلال الإسكندرية سنة ٢٥ هـ سنة ٦٤٦ م. فى عهد الراشد

الثالث عثمان بن عفان [٤٧ق هـ - ٣٥هـ ٥٧٧ - ٦٥٦م] هبوا إلى القتال مع الجيش المسلم ضد الرومان - النصارى! - وطلبوا من الخليفة إعادة عمرو بن العاص، لقيادة المعركة . فعاد إلى مصر، واستخلص الإسكندرية ثانية من أيدي الرومان . . وبعبارة صاحب كتاب [تاريخ الأمة القبطية]:

«فإن المقوقس والقبط تمسكوا بعهدهم مع المسلمين، ودافعوا عن المدينة - [الإسكندرية] - ما استطاعوا . . واجتمعت كلمة القبط والعرب على أن يطلبوا من الخليفة أن يأذن لعمر بن العاص في العودة إلى مصر لمقاتلة الروم، لتدبره على الحرب، وهيبته في عين العدو، فأجاب الخليفة طلبهم . . وكان القبط يحاربون مع العرب ويقاتلون الروم خوفاً من أن يتمكنوا من البلاد ويأخذونها فيقع الأقباط في يدهم مرة أخرى . . »^(٢١).

وفي شهادة لمؤرخ نصراني معاصر - هو الدكتور «چاك تاجر» [١٣٣٦ - ١٣٧١هـ ١٩١٨ - ١٩٥٢م]، يقول:

«إن الأقباط قد استقبلوا العرب كمحررين، بعد أن ضمن لهم العرب عند دخولهم مصر، الحرية الدينية، وخففوا عنهم الضرائب . . ولقد ساعدت الشريعة الإسلامية الأقباط على دخولهم الإسلام [ودماجهم في المجموعة الإسلامية، بفضل إعفائهم من الضرائب . . أما الذين ظلوا مخلصين للمسيحية، فقد يسر لهم العرب سبل كسب العيش . . إذ وكلوا لهم أمر الإشراف على دخل الدولة . . »^(٢٢).

وهذه التسامحة الإسلامية، التي تحدثت عنها هذه الشهادات النصرانية الشرقية، والتي أكدت وتؤكد أن هذه التسامحة لم تقف فقط عند «الدين»، وإنما امتدت لتشرك «جهاز الدولة» أيضاً لأهل البلاد . . قد شهد بحقيقتها المستشرق الألماني الحجة «آدم متز» [١٨٦٩ - ١٩١٧م] عندما قال:

«لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام»^(٢٣)!

وحتى فترات «التوتر الديني والطائفي» التي شهدتها التاريخ الإسلامي، بين المسلمين وغير المسلمين - والتي ما كان متصوراً لهذا التاريخ الطويل أن يخلو منها - فإن

سماحة الإسلام قد ظلت بريئة منها . . وذلك بشهادة المؤرخين الثقات من غير المسلمين . . والذين يقول واحد منهم - وهو المؤرخ الاجتماعي اللبناني «جورج قرم» . عن أسباب هذا التوتر الطائفي - الذي كان عابراً كسحب الصيف في سماء ذلك التاريخ الطويل - يقول هذا المؤرخ النصراني عن أسباب هذا التوتر ، إنها محصورة في ثلاثة أسباب :

١ - المزاج الشخصي المختل لحكام ، اضطهدوا الأغلبية المسلمة مع الأقليات غير المسلمة .

٢ - الظلم والاستعلاء الذي مارسه الزعامات النصرانية واليهودية ، التي قبضت على جهاز الدولة المالي والإداري ، فاضطهدت جمهور المسلمين الفقراء ، الأمر الذي ولد ردود أفعال لم تقف عند الذين ظلموا عنهم خاصة .

٣ - استجابة قطاعات من أبناء الأقليات لغوايات الغزاة الغربيين ، الأمر الذي ولد ردود أفعال عنيفة - عقب الغزوات الغربية - طالت قطاعات من أبناء هذه الأقليات .

لقد حصر «جورج قرم» التوتر الطائفي ، الذي مر بتاريخ السماحة الإسلامية ، في هذه الأسباب الثلاثة ، فقال :

«إن فترات التوتر والاضطهاد لغير المسلمين في الحضارة الإسلامية كانت قصيرة ، وكان يحكمها ثلاثة عوامل :

العامل الأول : هو مزاج الخلفاء الشخصي ، فأخطر اضطهادين تعرض لهما الذميون وقعا في عهد المتوكل العباسي [٢٠٦ - ٢٤٧ هـ ٨٢١ - ٨٦١ م] الخليفة الميال بطبعه إلى التعصب والقسوة . وفي عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله [٣٧٥ - ٤١١ هـ ٩٨٥ - ١٠٢١ م] الذي غالى في التصرف معهم بشدة .

العامل الثاني : هو تردى الأوضاع الاقتصادية الاجتماعية لسواد المسلمين ، والظلم الذي يمارسه بعض الذميين المعتلين لمناصب إدارية عالية ، فلا يعسر أن ندرك صلتها المباشرة بالاضطهادات التي وقعت في عدد من الأمصار .

أما العامل الثالث : فهو مرتبط بفترات التدخل الأجنبي في البلاد الإسلامية ، وقيام الحكام الأجانب بإغراء واستدراج الأقليات الدينية غير المسلمة إلى التعاون معهم ضد

الأغلبية المسلمة. إن الحكام الأجانب - بمن فيهم الإنجليز - لم يحجموا عن استخدام الأقلية القبطية في أغلب الأحيان ليحكموا الشعب ويستنزفوه بالضرائب - وهذه ظاهرة نلاحظها في سوريا أيضاً، حيث أظهرت أبحاث «جب» [١٨٩٥ - ١٩٧١ م] و«بوليك» كيف أن هيمنة أبناء الأقليات في المجال الاقتصادي أدت إلى إثارة فلاقل دينية خطيرة بين النصارى والمسلمين في دمشق سنة ١٨٦٠ م، وبين الموارنة والدروز في جبال لبنان سنة ١٨٤٠ م وسنة ١٨٦٠ م. ونهايات الحملات الصليبية قد أعقبتها، في أماكن عديدة، أعمال ثار وانتقام ضد الأقليات المسيحية - ولا سيما الأرمن - التي تعاونت مع الغازى. بل إنه كثيراً ما كان موقف أبناء الأقليات أنفسهم من الحكم الإسلامى، حتى عندما كان يعاملهم بأكبر قدر من التسامح، سيئاً في نشوب فلاقل طائفية، فعلاوة على غلو الموظفين الذميين في الابتزاز، وفي مراعاتهم وتحيزهم، إلى حد الصفاقة أحياناً لأبناء دينهم، ما كان يندر أن تصدر منهم استفزازات طائفية بكل معنى الكلمة. . .^(٢١)

تلك هي السماحة الإسلامية . .

كما تجلت في القرآن الكريم . .

وفي البيان النبوى للبلاغ القرآنى . .

وكما تجسدت في المواثيق الدستورية . . وفي الحياة العملية والواقع المعيش للدولة

الإسلامية - في العهد النبوى . . والخلافة الراشدة . . وعبر تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية . .

وكما شهدت بها المصادر التي كتبها المؤرخون الثقات، من النصارى الشرقيين والغربيين . . القدماء منهم والمحدثين والمعاصرين . . والذين تعمدنا الاعتماد على شهاداتهم هم وحدهم، دون شهادة المؤرخين المسلمين . . وذلك عملاً بمنهاج «وشهد شاهد من أهلها» على هذه السماحة الإسلامية، التي تفرد بها الإسلام . . والتي لا نظير لها خارج إطار الإسلام؟

الهوامش:

- (١) القرطبي [الجامع لأحكام القرآن] ج ٩ ص ١١٤ ، ١١٥ . طبعة دار الكتب المصرية - القاهرة .
- (٢) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة] ص ١٧ - ٢١ جمعها وحققها : د . محمد حميد الله الحيدري آبادي . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦ م .
- (٣) ابن القيم [زاد المعاد من هدى خير العباد] ج ٣ ص ٥٤٩ ، ٥٥٠ - تحقيق : شعيب الأرنؤوطي ، عبد القادر الأرناؤوطي . طبعة بيروت سنة ١٤١٨ هـ سنة ١٩٩٧ م . ومحمد بن يوسف بن صالح الشامي [سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد] ج ٦ ص ٦٤٢ - تحقيق : إبراهيم التريزى ، عبيد الكريم العزباوى - طبعة القاهرة سنة ١٤١٨ هـ سنة ١٩٩٧ م .
- (٤) [مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة] ص ١١٢ ، ١٢٣ - ١٢٧ .
- (٥) ابن عبد الحكم [فتوح مصر وأخبارها] ص ٤٦ . طبعة ليدن سنة ١٩٢٠ م .
- (٦) [مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة] ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ .
- (٧) البلاذري [فتوح البلدان] ص ٣٢٧ . تحقيق : د . صلاح الدين المنجد . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦ م .
- (٨) [الجامع لأحكام القرآن] ج ١ ص ٢٠٠ .
- (٩) المصدر السابق : ج ٣ ص ٤٨ .
- (١٠) الإمام محمد عبده [الأعمال الكاملة] ج ٤ ص ٥٥٨ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣ م .
- (١١) سيد سابق [فقه السنة] ج ٢ ص ٣٨٤ ، ٣٨٧ - ٣٨٩ . طبعة مكتبة التراث - القاهرة - بدون تاريخ .

- (١٢) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٣ ص ٢٨٢ .
- (١٣) [فيليب فارح، يوسف كريباج] المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامى العربى والتركى [ص ٢٥ ترجمة: بشير السباعى . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤ م .
- (١٤) [تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى : رؤية قبطية للفتح الإسلامى] ص ٢٠١ ، ٢٢٠ . ترجمة ودراسة: د. عمر صابر عبد الجليل . طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠ م .
- (١٥) المصدر السابق ، ص ٢٢٠ .
- (١٦) المصدر السابق ، ص ٢٢٠ .
- (١٧) د. صبرى أبو الخير سليم [تاريخ مصر فى العصر البيزنطى] ص ٦٢ . طبعة القاهرة سنة ٢٠٠١ م .
- (١٨) سير توماس أرنولد [الدعوة إلى الإسلام] ص ٧٢٩ ، ٧٣٠ . ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن ، د. عبد المجيد عابدين ، إسماعيل النحراوى ، طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م .
- (١٩) [تاريخ مصر فى العصر البيزنطى] ص ١٩٤ .
- (٢٠) يعقوب نخلة [تاريخ الأمة القبطية] ص ٥٤ - ٥٧ تقديم: د. جودت جبرة . طبعة مؤسسة مارعزقس لدراسة التاريخ - القاهرة سنة ٢٠٠٠ م .
- (٢١) المصدر السابق ، ص ٥٨ ، ٥٩ .
- (٢٢) د. چاك تاجر «أقباط ومسلمون منذ الفتح العربى إلى عام ١٩٢٢ م» ص ٣٠٩ ، ٣١٥ . طبعة الهيئات القبطية بالمهجر - مدينة جرسى - أمريكا سنة ١٩٨٤ م .
- (٢٣) آدم منير [الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى] ج ١ ص ١٠٥ . ترجمة: د. محمد عبد الهادى أبو ريدة طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م .
- (٢٤) جورج قزم [تعدد الأديان ونظم الحكم : دراسة سوسولوجية وقانونية مقارنة] ص ٢١١ - ٢٢٤ . طبعة بيروت سنة ١٩٧٩ م - والنقل عن: د. سعد الدين إبراهيم [الملل والنحل والأعراف] ص ٧٢٩ ، ٧٣٠ . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠ م .

المصادر والمراجع

- آدم متز: [الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري] ترجمة: د. محمد عبد الهادي أبو ريذة. طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م.
- ابن عبد الحكم: [فتح مصر وأخبارها] طبعة لندن سنة ١٩٢٠ م.
- ابن القيم: [زاد المعاد من هدى خير العباد] تحقيق: شعيب الأرنؤوطي، عبد القادر الأرنؤوطي. طبعة بيروت سنة ١٤١٨ هـ - سنة ١٩٩٧ م.
- أرنولد (سير توماس): [الدعوة إلى الإسلام] ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، ود. عبد المجيد عابدين، وإسماعيل النجراوي. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م.
- البلاغري: [فتوح البلدان] تحقيق: د. صلاح الدين المنجد. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦ م.
- د. چاك تاجر: [أفياط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢ م] طبعة - مصورة - الهيئات القبطية بالمهجر - مدينة جرسى - أمريكا - سنة ١٩٨٤ م.
- د. جورج فرم: [تعدد الأديان ونظم الحكم: دراسة سوسيولوجية مقارنة] طبعة بيروت سنة ١٩٧٩ م.
- د. سعد الدين إبراهيم: [الملل والنحل والأعراق] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠ م.
- سيد سابق: [فقه السنة] طبعة مكتبة التراث - القاهرة - بدون تاريخ.
- د. صبرى أبو الخير سليم: [تاريخ مصر في العصر البيزنطى] طبعة القاهرة سنة ٢٠٠١ م.
- فيليب فارغ، يوسف كروباچ: [المسيحيون واليهود في التاريخ العربى والتركى] ترجمة: بشير السباعى، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤ م.

- القرطبي : [الجامع لأحكام القرآن] طبعة دار الكتب المصرية - القاهرة .
- د. محمد حميد الله - محقق : [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦ م .
- محمد عبده (الأستاذ الإمام) : [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة ، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣ م .
- محمد بن يوسف بن صالح الشامي : [سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد] تحقيق : إبراهيم التريزى ، عبد الكريم العزباوى - طبعة القاهرة سنة ١٤١٨ هـ - سنة ١٩٩٧ م .
- يعقوب نخلة روفيلة : [تاريخ الأمة القبطية] طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠ م .
- يوحنا النقيوسى : [تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى] ترجمة ودراسة : د. عمر صابر عبد الجليل . طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠ م .

حقيقة الجهاد.. والقتال.. والإرهاب

تمهيد

هناك خلط كبير وشديد بين مضامين هذه المصطلحات الثلاثة : **الجهاد** . . **والقتال** . . **والإرهاب** . وهذا الخلط هو أشد ما يكون في هذه الحرب السياسية والفكرية والدينية والإعلامية الكبرى التي تشنها دوائر غربية متنفذة ضد الإسلام وأمنه وحضارته وعالمه . . . ليس فقط منذ «قارعة» «سبتمبر سنة ٢٠٠١م» التي وقعت بأمريكا . . وإنما قبل هذه «القارعة» بعقود . . وربما قرون . . لكن هذه «القارعة» قد تصاعدت بهذه الحملة - ومن ثم بهذا الخلط بين مفاهيم هذه المصطلحات - تصاعداً غير مسبوق في تاريخ علاقات الغرب بالشرق ، والغربيين بالشرقيين .

ولا أدل على سبق الريبة في مضمون مصطلح الجهاد الإسلامي ، والخلط بينه وبين القتال والعنف الإرهابي - الذي يروّع الأبرياء والأمنين - لا أدل على ذلك من حذف قمة منظمة المؤتمر الإسلامي مصطلح الجهاد من بيانها الختامي - في «داكار» بالسنغال ١٤١٢هـ / ١٩٩١م . . وذلك مخافة «الظلال السلبية التي ألحقها هذا الخلط بمصطلح الجهاد!» .

ولأن النظر إلى «الآخر» من خلال «الذات» هو عيب شائع في الدراسات المقارنة بين الديانات والثقافات والحضارات ؛ لأنه يؤدي إلى صب «الآخر» في قوالب «الذات» وتجاهل - ومن ثم إلغاء - الفروق بين الديانات والثقافات والحضارات ، وذلك بدلاً من التمييز بين «الأشباه والنظائر» التي تجمع النماذج الثقافية في موضوع الدراسة ، وبين «الفروق» التي تمايز بينها . . . كان هذا المنهج الأحادي الجانب هو السبب في كثير من الخلط الذي يصيب مضامين العديد من المصطلحات .

صحيح أنه لا مشاحة في استخدام المصطلحات من قبل أهل الحضارات المختلفة والديانات المتعددة والثقافات المتميزة . . . لكن هناك مشاحة أكيدة في المضامين والمفاهيم والمحتويات التي تُسهم - لدى كل فريق - من ذات المصطلحات . . . فالمصطلحات بمثابة الأوعية، يستخدمها ويتداولها الجميع، لكن محتويات هذه الأوعية - مضامين المصطلحات - تتفاوت وتتغير وتتمايز - بل وقد تتناقض - لدى أصحاب الأنساق الفكرية المختلفة، رغم وحدة المصطلحات .

لقد استخدمت الدنيا - عبر تاريخها - ولا تزال تستخدم مصطلح «السياسة» . . . لكن هناك ثقافات وحضارات قد جعلت «القوة» . . . والغلبة هي المضامين والمقاصد من وراء فلسفة السياسة وآلياتها . . . بينما ربطت الثقافة الإسلامية هذه السياسة بمعايير الصلاح والقيم والأخلاق . . . فرأتها: «التدابير التي يكون الناس معها أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد»^(١) .

واستخدمت الدنيا - عبر تاريخها - ولا تزال تستخدم مصطلح «الدين» . . . لكن هناك الفلسفات الوضعية التي رأت في الدين إفرازاً للعقل البشري، ورأت في «التوحيد الديني» مرحلة متطورة من مراحل هذا الإفراز والإبداع البشري! . . . بينما رأت الفلسفات الإيمانية - ولا تزال - وحياً سماوياً، ووضعاً إلهياً عند فجر البشرية، لهداية الناس في المعاش والمعاد .

واستخدمت الدنيا - منذ قرون طويلة - ولا تزال تستخدم مصطلح «الإقطاع» . . . لكن هناك ثقافات وحضارات ومذاهب اجتماعية ترى فيه: تملك إنسان للأرض وما عليها ومن عليها . . . بينما رأت الثقافة الإسلامية وتراثها وتاريخها الحضارى: مجرد تملك منفعة، لإحياء الأرض الموات؛ لأن مالك الرقبة - المالك الحقيقي - للأرض وجميع الثروات هو الله - سبحانه وتعالى - . . . والناس - مطلق الناس - مستخلفون ونواب ووكلاء في هذه الأرض وما فيها وما عليها من الأموال والثروات^(٢) .

وكذلك الحال مع مصطلحات الجهاد . . . والقتال . . . والإرهاب . . . حدث هناك خلط كبير وشديد بين مفاهيمها ومضامينها ومحتوياتها، على النحو الذي نشكو منه هذه الأيام .

الحرب الدينية المقدسة

باستثناء قطاع محدود من العلماء الغربيين ، الذين درسوا الإسلام وحضارته وتاريخه وفق موضوعية الدراسات المقارنة ، والذين تحررت ضمائرهم من قيود المقاصد «الإمبريالية» الغربية ، فإن الكثيرين من الذين قاموا بدراسة الحضارة الإسلامية وتاريخ المسلمين - سواء بسوء فهم أو سوء نية - قد وقعوا في خطأ النظر إلى «الذات الإسلامية» من خلال منظار «المعايير» التي حكمت مسيرة الحضارة الغربية ، والكهانة الكنسية للنصرانية الغربية ، والتاريخ الحضارى الغربى ، وما شهدته من صراعات .

❖ فإذا ذكرت الخلافة الإسلامية -وهى دولة مدنية مرجعيتها الشريعة الإسلامية- فنز إلى مخيلتهم كهانة الدولة الكنسية الأوروبية التي حكمت بالحق الإلهي والتفويض السماوى .

❖ وإذا ذكر الحق فى المواطنة ، لم يتصوروه إلا قائماً على أنقاض الدين وشريعته ، وفى ظلال العلمانية واللا دينية .

❖ وإذا ذكر الدين ، لم يتصوروه إلا علاقة فردية بين الإنسان وخالقه ، تقف عند خلاص الروح ومملكة السماء ، لا علاقة لها بهذا العالم ؛ لأنها تدع ما لقيصر لقيصر ، مكتفية بما لله .

وانطلاقاً من النظر إلى «الآخر الإسلامى» من خلال منظار «الذات الغربية» حسب هؤلاء الغربيون - ومعهم مثقفون المتغربون- الجهاد الإسلامى «حرباً دينية مقدسة» ضد أصحاب الديانات الأخرى ، تكون معايير البراء والعداء والصراع فيها هى الاختلافات فى المعتقدات .

ولقد كانت الحروب الصليبية، التي شنها الغرب النصراني على الشرق الإسلامي، والتي دامت قرنين من الزمان (٤٠٩-٦٩٠ هـ ١٠٩٦-١١٩١ م)، والتي غلفتها الكنيسة بالدعاوى الدينية الخالصة لتحجّب مقاصدها «الإمبريالية». . . كانت هذه الحروب الدينية المقدسة هي النموذج الذي قاس عليه هؤلاء الغربيون - والمتغربون - الجهاد الإسلامي، فكان خلط الأوراق والمفاهيم الذي نشكو منه حتى هذه اللحظات .

لقد شنت الكنيسة الأوروبية حربها الدينية المقدسة - الصليبية - ضد الإسلام وأمته وعالمه، باعتبارها حرباً ضد «الكفار» لتخليص «قبر الله - المسيح» - بزعمها - من أيدي هؤلاء الكفار، معلنة أن هذه الحرب المقدسة هي حرب إلهية، لذات الله، وفي ذات الله، وأن فرسانها إنما يحملون «مفاتيح الجنة» مع أدوات القتل والقتال!

وعن هذه الطبيعة الدينية لهذه الحرب - التي غلفت مقاصدها الإمبريالية - جاء في خطاب البابا الذهبي «أوربان الثاني» (١٠٨٨-١٠٩٩ م) الذي دعا فيه فرسان الإقطاع الأوروبي إلى هذه الحرب المقدسة :

«يا من كنتم لصوصاً كونوا اليوم جنوداً، لقد آن الزمان الذي فيه تحوّلون ضد الإسلام تلك الأسلحة التي أنتم لحد الآن تستخدمونها بعضكم ضد البعض . . . فالحرب المقدسة المعتمدة الآن . . . هي . . . في حق الله عينه . . . وليست هي لاكتساب مدينة «واحدة» . . . بل هي أقاليم آسيا بجمليتها مع غناها وخزائنها العديدة الإحصاء . . .

فاتخذوا محجة القبر المقدس، وخلصوا الأراضي المقدسة من أيادي المختلسين، وأنتم املكوها لذواتكم، فهذه الأرض - حسب ألفاظ التوراة - تفيض لبناً وعسلاً . . . ومدينة أورشليم هي قطب الأرض المذكورة، والأمكنة المخصصة المشابهة فردوس سماوي .

اذهبوا وحاربوا البربر - (يقصد المسلمين!) - لتخليص الأراضي المقدسة من استيلائهم . . . امضوا متسلحين بسيف مفاتيحي البطرسية - أي : مفاتيح الجنة التي صنعها لهم البابا! - واكتسبوا بها لذواتكم خزائن المكافآت السماوية الأبدية، فإذا أنتم انتصرتم على أعدائكم، فالملك الشرقي يكون لكم قسماً وميراثاً . . .

وهذا هو الحين الذى فيه أنتم تفدون عن كثرة الاغتصابات التى مارستموها
عدواناً . . . ومن حيث إنكم صبغتم أيديكم بالدم ظليماً ، فاغسلوها بدم غير
المؤمنين !!^(٣) .

« ولذلك ، لم يقف دور رجال الكهنوت الكنسى الأوروبى فى هذه «الحرب
المقدسة» عند التنظير والتحريض للعامة والدهماء ، والترغيب لفرسان الإقطاع
«بمفاتيح الجنة» ! . . . وإنما وجدنا كرادلة الكنيسة . . . يشاركون - هم أنفسهم - فى
مجازر هذه «الحرب المقدسة» معتبرين ذبح المسلمين أعظم القربات التى يتقربون بها
لإرضاء الرب !!

فالصليبيون الذين غزوا القدس (٤٩٢هـ - ١٠٩٩م) قد ذبحوا وأحرقوا كل من
وقع فى أيديهم من المسلمين ، حتى الشيوخ والنساء والأطفال - ذبحوا سبعين ألفاً ،
فى سبعة أيام ! - حتى الذين احتموا بمسجد قبة الصخرة - مسجد عمر بن الخطاب -
ذبحوا ، وسبحت خيول الصليبيين فى دمائهم إلى الجُم الخيل - كما نقل ذلك عن شهود
العيان رجل الدين النصرانى صاحب كتاب (تاريخ الحروب المقدسة فى الشرق)^(٤) .

ولقد كان رجال الدين النصارى - نعم رجال الدين ! - فى مقدمة الذين اجترحوا
هذه الفظائع والسيئات . . . ولقد وصف المؤرخ الأوروبى «ميشائيل درسيرر» صنيع
«البطريك نفسه فى هذه المذبحة عندما كان يعدو فى أزقة بيت المقدس ، وسيفه بقطر
دمًا ، حاصداً به كل من وجدته فى طريقه ، ولم يتوقف حتى بلغ كنيسة القيامة وقبر
المسيح ، فأخذ فى غسل يديه ، تخلصاً من الدماء اللاصقة بها ، مردداً كلمات المزمور :
«يفرح الأبرار حين يرون عقاب الأشرار ، ويغسلون أقدامهم بدمهم ، فيقول الناس :
حقاً إن للصديق مكافأة ، وإن فى الأرض إلهاً يقضى» - [المزمور ٥٨ : ١٠-١١] .

ثم أخذ - البطريك - فى أداء القداس ، قائلاً : «إنه لم يتقدم فى حياته للرب بأى
قربان أعظم من ذلك ليرضى به الرب» !^(٥)

فهى حرب دينية مقدسة . . . فى ذات الله . . . ولعين الله . . . يحمل فرسانها
مفاتيح الجنة . . . وذبحهم للمسلمين فيها هو أعظم القربات التى يتقدم بها هؤلاء
الصليبيون إلى الله !



« كذلك ، جعلت الكنائس الغربية - الكاثوليكية . . . والبروتستانتية - صراعات شعوبها وأمرائها ضد بعضهم البعض حروباً مقدسة ، هدفها الإكراه على تغيير الاعتقاد الدينى . . . يتقربون بمجازرها إلى الله ، ويقومون الصلوات والقدايس فى ذكرى المجازر التى ارتكبوها فيها ، شكرًا لله !!

لقد غدت هذه الكنائس - التى تنازعت النصرانية والأنجيل وطبيعة المسيح - عليه السلام - ديانات مستقلة ، لكل كنيسة منها « قانون للإيمان » يحتكر الدين والخلاص الدينى لأبناء المذهب دون سواهم ، ويتخذ من هذه الحرب الدينية المقدسة سبيلًا من العنف القتالى لإيادة المخالفين فى المذهب ، أو إكراههم على تغيير عقيدتهم الدينية .

وفى هذه الحروب الدينية المقدسة - التى دامت أكثر من قرنين من الزمان - بين الكاثوليك والبروتستانت ، والتى اشتهر منها إحدى عشرة حربًا فى (١٥٦٢-١٥٦٣م) و (١٥٦٩-١٥٧٠م) و (١٥٧٢-١٥٧٣م) ، (١٥٧٤-١٥٧٦م) و (١٥٧٦-١٥٧٧م) و (١٥٨٠م) و (١٥٨٥-١٥٩٤م) (١٥٨٦م) و (١٦٢١م) و (١٦٢٥-١٦٢٩م) . . . والتى أبيد فيها ٤٠٪ من شعوب وسط أوروبا!! . . . فى هذه الحروب ذبح الكاثوليك - على عهد «تشارلس التاسع» (١٥٥٠-١٥٧٤م) وحده - أكثر من عشرين ألفًا من البروتستانت! . . . ويومئذ انهارت التهانى على الملك ، وكاد البابا «جريجورى الثالث عشر» (١٥٧٢-١٥٨٥م) يطير فرحًا بهذه المذابح المقدسة وضحاياها!! . . . حتى أنه أمر أن تُسك أوسمة لتخليد ذكرى هذه «المجازر المقدسة» ، وتوزع على الشعب والأعيان . . . ولقد رسمت صورة البابا على هذه الأوسمة ، وإلى جانبه صورة الملك «تشارلس التاسع» وهو يضرب بسيفه أعناق «الملحدين - البروتستانت»! وكتب على هذه الأوسمة عبارة: «إعدام الملحدين»!

كذلك ، أمر البابا - لمزيد من الاحتفال بهذه المجازر المقدسة - بإطلاق المدافع ، وإقامة القدايس فى شتى الكنائس ، ودعا الفنانين إلى تصوير مناظر المذابح على حوائط القاتيكان^(٦) .



« كذلك كانت محاكم التفتيش التي أقامتها كل كنيسة غربية ضد مخالفيها في الاعتقاد . . . والتي أقامتها ضد المسلمين واليهود عقب إسقاط «غرناطة» (٨٩٧هـ- ١٤٩٢م) واقتلاع الإسلام من الأندلس ، كانت محاكم التفتيش هذه-والتي دامت ثلاثة قرون ! - حروباً دينية مقدسة ، أرادت من ورائها الكهانة الكنسية الغربية «إخلاص» المخالفين «بتخليصهم من الحياة» !! «فالذين لا يذعنون للكنيسة» ويعتقدون بصدق نظرياتها، تحقيق بهم اللعنة الأبدية لا محالة . . . ويصبح إنقاذ الدنيا منهم واجباً مقدساً !! . . . وحتى الطفل - على براءته وخلو ساحته من الخطايا- متى مات من غير تعميد- على المذهب الكاثوليكي - قضى بقية حياته في جهنم! . . . ولذلك كان طبيعياً - في ظل هذه العقيدة للخلاص ، وهذا الدستور لاضطهاد المخالفين - أن يتعرض المتهمون بالمروق لأشد صتوف العذاب . . . »^(٧) .

ولقد توطن وشاع نظام محاكم التفتيش هذه حتى غطى كل أنحاء العالم المسيحي بشبكة لا سبيل إلى انقائها . . . تعاون فيها وعليها البابوات والقساوسة والرهبان والملوك والأمراء والعامّة والدهماء . . . وشهدت إنجلترا - في عهد الملك «هنري الرابع» (١٣٩٩-١٤١٣م) والملك «هنري الخامس» (١٤١٣-١٤٢٢م) - موجة من الإعدامات للمخالفين بواسطة الإجلال على الخازوق! . . . ولم يبلغ هذا الأسلوب نهائياً إلا في ١٦٧٦م!

أى أن الإعدام بالخازوق المقدس قد دام قرابة ثلاثة قرون !

أما في إسبانيا فلقد بدأت محاكم التفتيش في عهد الملكة «إيزابيلا» (١٤٥١- ١٥٠٤) والملك «فرديناند» (١٤٥٢-١٥١٦) - بمباركة البابا «سكستوس الرابع» (١٤٧١-١٤٨٤م) - وشملت حتى المستعمرات التي حكمتها إسبانيا . . . وطبقت على المسلمين واليهود المهزومين ، رغم عهد الأمان الذي حصلوا عليه . . . فأجبر على التنصر منهم من ضعف عن تحمل العذاب . . . وفر من إسبانيا من أثر التمسك بدينه . . . وغرقت البلاد في حمام من الدّم الذي سفكته محاكم التفتيش .

وكان المبدأ العام الذي يحكم محاكم التفتيش هذه - وفق «فرمان الإيمان»- يقول : «لأن يُدان مائة بريء زوراً ويهتأن، ويعانوا العذاب ألواناً، خير من أن يهرب من العقاب مذنب واحد»!^(٨) .

وعند تنفيذ أحكام هذه المحاكم ، « فكل من ساهم في تقديم الرقود الذي يحرق به
المحكوم عليه ، فقد استحق المغفرة لما قدم من الذنوب » !!^(٩)



هكذا عرف اللاهوت الكنسى الغربى تلك الحروب الدينية المقدسة . . . ضد
الإسلام والمسلمين . . . وضد الكنائس المخالفة فى الاعتقاد . . . وضد الأفراد الذين
اتهموا بحرية التفكير والبحث العلمى خارج الإنجيل .

وانطلاقاً من هذا النموذج « الحضارى » و « التاريخى » ومن خلال هذا المنظار
الغربى نظر كثير من المستشرقين الغربيين إلى الجهاد ، الذى تحدث عنه القرآن
الكريم . . . والذى جعلته السنة النبوية ذروة سنام الإسلام .



حقيقة الجهاد الإسلامى

إن الجهاد الإسلامى ليس حرباً دينية مقدسة؛ لأن الإسلام ينكر ويستنكر أى حرب دينية، فالإيمان الإسلامى: تصديق قلبى يبلغ مرتبة اليقين... وهو سر بين المؤمن وبين خالقه، لا يثنأى إلا بالفهم والعلم والإقناع والافتناع، ولا يمكن أن يكون ثمرة لأى لون من ألوان الإكراه - فضلاً عن أن يكون هذا الإكراه عنفاً قتالياً- ولذلك، قرر القرآن الكريم القاعدة المٌحكمة والحاكمة: ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ [البقرة: ٢٥٦]... والتى لا تعنى فقط «النهى» عن الإكراه فى الدين، وإنما تعنى - أيضاً- «نفى» أن يكون هناك دين أو تدين عن طريق الإكراه!... إذ الإكراه يثمر «نفاقاً» - وهو أخطر من «الشرك» «الصراح» و«الكفر» البواح-... ولا يمكن أن يثمر «إيماناً» بحال من الأحوال... ولذلك، شاعت فى القرآن الكريم الآيات التى تقول للمخالفين: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]. ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. والتى تحدد مهمة الرسالة فى الاعتقاد ﴿ما على الرسول إلا البلاغ﴾ [المائدة: ٩٩]. ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [٢١] لست عليهم بمسيطر﴾ [الفاشية: ٢١-٢٢]. ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]. ﴿وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل﴾ [الأنعام: ١٠٧].



وإذا كان الخلط بين الجهاد الإسلامى وبين الحرب الدينية المقدسة هو أثراً من آثار سوء الفهم للإسلام، أو سوء النية فى تصوير الإسلام... فإن هناك خطأ آخر يقع فيه الذين يختزلون الجهاد الإسلامى فى القتال الذى تحدث عنه القرآن الكريم، وممارسه المسلمون فى عصر النبوة، وعلى امتداد تاريخ الإسلام.

وذلك أن الجهاد الإسلامى - الذى هو فريضة إسلامية - أعم من القتال - الذى شرعه الإسلام - فكل قتال جهاد وليس كل جهاد قتالاً . . . إذ القتال هو الجانب العنيف من الجهاد، وليس كل الجهاد!

إن الجهاد فى اصطلاح العربية - كما جاء فى «لسان العرب» لابن منظور (٦٣٠- ٧١١هـ- ١٢٣٢- ١٣١١م) هو: «استفراغ ما فى الوسع والطاقة من قول أو فعل» . . . فهو لا يقف عند «الفعل» فضلاً عن أن يكون هذا «الفعل» فقط هو «الفعل العنيف» - الحرب - دون سواء .

والجهاد فى الاصطلاح القرآنى «هو بذل الوسع فى المدافعة والمغالبة» فى كل ميادين المدافعة والمغالبة . . أى فى كل ميادين الحياة . . وليس فقط فى ميادين القتال . . . وأكثر ما ورد الجهاد فى القرآن الكريم ورد مراداً به بذل الوسع فى نشر الدعوة الإسلامية والدفاع عنها»^(١١) . . وسبيل الدعوة الإسلامية هو الحوار بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هى أحسن . . وليس بالقتال والإكراه والحرب الدينية المقدسة . . فميادين الجهاد الإسلامى الأكبر والأعظم والأغلب هى عوالم الأفكار والحوار . . .

وكذلك جاء تعريف الجهاد «بالدعاء إلى الدين الحق» فى الكثير من موسوعات المصطلحات فى تراث حضارة الإسلام^(١٢) .

فبذل الوسع واستفراغ الطاقة والجهد فى ميادين العلم والتعلم والتعليم هو جهاد . . وبذل الوسع واستفراغ الطاقة والجهد فى عمران الأرض - نهوضاً بأمانة الاستخلاف الإلهى للإنسان - هو جهاد . .

بل إن الرفق بالإنسان والحيوان والنبات والجماد - الطبيعة - هو جهاد . .

وكذلك البر والإحسان إلى الوالدين والأقربين وأولى الأرحام هو جهاد . .

كما أن الخشية لله ومراقبته وتقواه والتبتل إليه - سبحانه وتعالى - هى قمة من قمم الجهاد الذى فرضه الإسلام . . .

ولهذه الحقيقة - حقيقة عموم الجهاد فى كل ميادين الحياة، وليس اختزاله فقط فى القتال - قسّم الراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ- ١١٠٨م) «الجهاد إلى ثلاثة أضرب:

١- مجاهدة العدو الظاهر . .

٢- ومجاهدة الشيطان . .

٣- ومجاهدة النفس . .

وتدخل ثلاثها في قوله - تعالى - : ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ [الحج : ٧٨]
﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ [التوبة : ٤١] . ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا
وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض﴾
[الأنفال : ٧٢] - وقال ﷺ : «جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم . .
وجاهدوا الكفار بأيديكم وألستكم»^(١٢) .

وعندما نزل - بالقرآن الكريم - في الشعر ما نزل : ﴿والشعراء يتبعهم الغاؤون
(٢٢٤) ألم تر أنهم في كل واد يهيمون (٢٢٥) وأنهم يقولون ما لا يفعلون (٢٢٦) إلا الذين آمنوا
وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي
مقلب ينقلبون﴾ [الشعراء : ٢٢٤-٢٢٧] . . . ذهب الصحابي الشاعر كعب بن مالك
[٥٠هـ - ٦٧٠م] إلى رسول الله ﷺ فقال :

- يا رسول الله ، إن الله - تبارك وتعالى - أنزل في الشعر ما قد علمت ، فكيف
ترى فيه ؟

- فقال ﷺ : «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذي نفسي بيده لكان ما
ترمونهم به نضح النبل» - أي رمى النبل - رواه الإمام أحمد . . .
فالكلمة الصادقة جهاد . .

بل إن الموضع الوحيد الذي وصف فيه «الجهاد» بـ«الكبير» - في القرآن الكريم -
كان حديثاً عن الجهاد بالقرآن - أي بالفهم والوعى والحوار بالحكمة والموعظة الحسنة -
وليس حديثاً عن القتال بالسنان : ﴿فلا تطع الكافرين وجاهدنهم به جهادا كبيرا﴾
[الفرقان : ٥٢] .

بل لقد جعلت السنة النبوية - وهي البيان النبوي للبلاغ القرآني - من أفعال
القلوب - وليس فقط الأيدي والألسنة - ميداناً من ميادين الجهاد الإسلامي . . . فعن

عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي ، إلا كان من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن . وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » - رواه مسلم - .

كذلك جعلت السنة النبوية العلم والتعلم قريناً مساوياً للجهاد في سبيل الله . . .
 فعن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « من دخل مسجدنا هذا ليتعلم خيراً أو ليعلمه كان كالمجاهد في سبيل الله » - رواه البخاري ومسلم . . . وفي الحديث كذلك أن : « الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله » - رواه البخاري ومسلم - وكذلك بر الوالدين ، هو ميدان من ميادين الجهاد الإسلامي ، نص حديث رسول الله ﷺ . . . فعن عبد الله بن عمر - رضى الله عنه - قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد ، فقال له ﷺ :

- « أحى والداك ؟ »

- قال : نعم .

- قال ﷺ : « ففیهما فجاهد » - رواه البخاري ومسلم - .

وكذلك الحال مع حراسة النفس من الشيطان ، يعدها الإسلام ميداناً من ميادين الجهاد . . . وكما يقول المعصوم ﷺ : « فالمجاهد من جاهد نفسه في الله - عز وجل ! » - رواه الترمذي والإمام أحمد - . .

ومثل ذلك حراسة الوطن والمرابطة على ثغور دار الإسلام - كل الثغور - هي جهاد يكون أصحابها أول من يدخل الجنة من خلق الله . . . فعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال :

- « أتدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله ؟ »

- قالوا : الله ورسوله أعلم .

- قال ﷺ : « أول من يدخل الجنة من خلق الله : الفقراء ، والمهاجرون الذين تُسد بهم الثغور ويتقى بهم المكار » - رواه الإمام أحمد - .

كذلك جعلت السنة النبوية الحج إلى بيت الله الحرام - وفيه التجرد من الدنيا وقوتها، بل وزينتها - والتعاشيش السلمى حتى مع الهوام وكل أنواع الأحياء والنباتات - جعلت السنة النبوية هذا الحج ميداناً من ميادين الجهاد الإسلامى، فقال رسول الله ﷺ فيما يرويه طلحة بن عبيد الله - رضى الله عنه: «الحج جهاد والعمرة تطوع» - رواه ابن ماجه - . .

وعندما استأذنت النساء رسول الله ﷺ فى الخروج إلى الجهاد القتالى، قال لهن: «جهادكن الحج» - رواه البخارى وابن ماجه والإمام أحمد - . . فجعل الحج - بالنسبة للرجال والنساء - ميداناً من ميادين الجهاد الإسلامى فى هذه الحياة .

تلك هى حقيقة الجهاد الإسلامى، الذى هو بذل الجهد واستفراغ الوسع والطاقة، فى أى ميدان من ميادين الحياة، على امتداد هذه الميادين واتساعها وتنوعها . . . وليس فقط هو القتال . . . فضلاً عن أن يكون الحرب الدينية المقدسة، كما عرفتھا ومارستها الكهانة الكنسية الغربية فى صراعها الدامى ضد الإسلام وأمتة وحضارته . . . وضد المخالفين لها فى الاعتقاد .

ولهذه الحقيقة كان الجهاد الإسلامى فريضة لازمة على كل مسلم ومسلمة؛ لأنه مستطاع لكل المكلفين، وفق القدرات التى امتلكها ويمتلكها هؤلاء المكلفون، وفى أى ميدان يستطيع المكلف أن يبذل جهده فيه - بسائر ميادين العبادات والمعاملات - بينما كان القتال - الذى هو شعبة من شعب الجهاد - مشروطاً بشروط، وله ميادين محددة ضبطها القرآن الكريم فى الآيات التى تحدثت عن القتال .

ولقد أدرك هذه الحقيقة - حقيقة مغايرة الجهاد الإسلامى للحرب الدينية المقدسة، كما عرفتھا الكنيسة الأوروبية والحضارة الغربية - أدرك هذه الحقيقة نفر من علماء الغرب، الذين تحلوا بالموضوعية والعمق والإخلاص فى دراساتهم للإسلام . . ومن هؤلاء العلماء كانت المستشرقة الألمانية الدكتورة «سيجريد هونكه» التى كتبت عن هذه الحقيقة من حقائق الجهاد الإسلامى، فقالت:

«إن الجهاد الإسلامى ليس هو ما نطلق عليه - ببساطة - مصطلح الحرب المقدسة. فالجهاد «هو كل سعى مبذول، وكل اجتهاد مقبول، وكل تثبيت للإسلام فى أنفسنا،

حتى نتمكن في هذه الحياة الدنيا من خوض الصراع اليومي المتجدد أبداً ضد القوى
الأمارة بالسوء في أنفسنا وفي البيئة المحيطة بنا عالمياً.

فالجهد هو المنبع الذي لا ينقص ، والذي ينهل منه المسلم مستمداً الطاقة التي
تؤهله لتحمل مسؤوليته ، خاضعاً لإرادة الله عن وعي ويقين . إن الجهد بمثابة التأهب
اليقظ الدائم للأمة الإسلامية ، للدفاع بردع كافة القوى المعادية التي تقف في وجه
تحقيق ما شرعه الإسلام من نظام اجتماعي إسلامي في ديار الإسلام^(١٣) .

تلك هي حقيقة الجهد الذي فرضه الله - سبحانه وتعالى - وجعله ذروة سنام
الإسلام . . . والذي جاهدته المسلمون - ولا يزالون - على امتداد تاريخ الإسلام . .
والذي يكون جهاداً كبيراً عندما يكون فقهاً ووعياً وحواراً بالحكمة والموعظة الحسنة ،
انطلاقاً من القرآن الكريم : ﴿وجاهدوهم بجهاد كبير﴾ .



ولقد أدرك حقيقة الجهد الإسلامي الإمام محمد عبده . . فكتب يقول في تفسير
قول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا
مَعَكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران : ١٤٢] .

.. ربما يقول قائل : إن الآية تفيد أن من لم يجاهد ويصبر لا يدخل الجنة ، مع
أن الجهد فرض كفاية :

ونقول : نعم ، إنه لا يدخل الجنة من لم يجاهد في سبيل الحق ، ولكن الجهد في
الكتاب والسنة يستعمل بمعناه اللغوي ، وهو احتمال المشقة في مكافحة الشدائد ، ومنه
جهاد النفس ، الذي روى عن السلف التعبير عنه بالجهاد الأكبر . ومن أمثلة ذلك
مجاهدة الإنسان لشهواته ، لا سيما في سن الشباب ، وجهاده بماله ، وما يُبتلى به
المؤمن من مدافعة الباطل ونصرة الحق .

إن الله في كل نعمة عليك حقاً ، وللناس عليك حقاً ، وأداء هذه الحقوق يشق على
النفس ، فلا بد من جهادها ليسهل عليها أدائها ، وربما يُفَضَّلُ بعض جهاد النفس جهاد
الأعداء في الحرب ، فإن الإنسان إذا أراد أن يثبت فكرة صالحة في الناس أو يدعوهم

إلى خيرهم... من إقامة سنة أو مقاومة بدعة أو النهوض بمصلحة - فإنه يجد أمامه من الناس من يقاومه ويؤذيه إيذاء قلما يصبر عليه أحد. وناهيك بالتصدي لإصلاح عقائد العامة وعاداتهم، وما الخاصة في ضلالهم إلا أصعب مراساً من العامة! ^(١٢).

فالجهد أعم من القتال . . . ولذلك - كما يقول الإمام محمد عبده - فلن يدخل الجنة إلا المجاهدون . . . بينما القتال ليس شرطاً في النجاة؛ لأنه ليس فرضاً في كل الحالات، وفي جميع لحظات الحياة! . . .

حقيقة القتال في الإسلام

وإذا كان الجهاد - في الإسلام - أعم من القتال . . . فإن القتال - الذي هو الجهاد العنيف - والذي هو شعبة واحدة من الشعب السلمية التي لا تُحصى للجهاد متميزة ثمرته - وهي القتل - عن الموت الطبيعي . . فالموت : هو قوتُ الحياة . . بينما القتل : هو إزالة الروح وإزهاقها ، وفوت الحياة بفعل فاعل من الخارج يتولى هذا الإزهاق .

وليس هناك شك - بل ولا غرابة - في أن نجد في الإسلام تشريعاً مضبوطاً يجوز القتال أو يوجبه في بعض الحالات ، ذلك أن الإسلام دين ودولة . . . وأمة ووطن . . . واجتماع ونظام . . . فالدين - في الإسلام - لا بد لإقامته من وطن يقام فيه ؛ لأن هذا الدين ليس مجرد تكاليف فردية ، يستطيع المكلف بها أن يقيمها معزول عن الناس ، أو بإدارة الظاهر للناس ، وإنما فيه - إلى جانب التكاليف الفردية - تكاليف اجتماعية لا تؤدي إلا في أمة وجماعة ونظام ومؤسسات وسلطة واجتماع ، أي لا بد له من وطن ودولة . . . وهذه التكاليف الاجتماعية - والكفائية - هي أكد وأهم من التكاليف الفردية ؛ لأن الإثم في التخلف عن التكليف الفردي يقع على الفرد فقط ، بينما إثم التخلف عن التكليف الجماعي والاجتماعي - الكفائي - يقع على الأمة جمعاء .

بل إن أغلب التكاليف الفردية - في الإسلام - تؤدي وتقام في جماعة ، وثوابها في الجماعة أضعاف أضعاف إقامتها خارج الجماعة .

ولهذه الحقيقة - التي تميز بها الإسلام عن النصرانية . . . التي تتمثل ذروة إقامتها كاملة في الرهبانية التي تدير الظاهر للعالم والدنيا والناس - كان «الوطن» هو الوعاء الذي بدونه لا تُقام جملة شعائر الإسلام وفرائضه وتكاليفه .

ولهذه الحقيقة - أيضاً - رفع الإسلام قيمة الحفاظ على حرية الوطن واستقلاله وسيادته، وحق المواطن - بل واجبه - في أن يعيش حراً في وطن حر... رفع هذه القيمة إلى مقام الحياة!... فجاء في القرآن الكريم حديث عن أن الإخراج من الديار معادل ومساو للقتل الذي يُخرج الإنسان من عداد الأحياء :

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا ﴾ [النساء: ٦٦]... وجاء في القرآن الكريم - كذلك - الإشارة إلى بنود المواثيق التي أخذها الله - سبحانه وتعالى - على بعض الأمم، ومنها نتعلم أن الإخراج من الديار، والحرمات من الوطن، هو معادل لسفك الدماء والإخراج من الحياة: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تُشْهِدُونَ ﴾ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسَارَى تَفَادَوْهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إخراجَهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٤-٨٥].

ولذلك، جعل القرآن الكريم «استقلال الوطن وحرية» الذي هو ثمرة لوطنية أهله ويسألهم في الدفاع عنه، جعل ذلك «حياة» لأهل هذا الوطن... بيتما عبر عن الذين فرطوا في استقلال وطنهم بأنهم «أموات»!... وجعل من عودة الروح الوطنية إلى الذين سبق لهم التفریط فيها، عودة لروح الحياة إلى الذين سبق وأصابهم الموت والموت! : ﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٢٤٣) وقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٤٣-٢٤٤].

فالذين خرجوا من ديارهم - وليس الذين أخرجوا - تضعف في وطنيتهم، وجبن عن مقاتلة أعداء وطنهم، هم أموات، مع أنهم أُلُوفٌ يأكلون ويشربون! «وعودة الوطنية إليهم، واستخلاصهم لوطنهم، هو إحياء لهم بعد الممات!

ولأن هذا هو مقام الوطن وضرورته لإقامة دين الإسلام وشريعته كان الجهاد القتالي وارداً وأحياناً واجباً للحفاظ على الوعاء - الوطن - الذي بدونه لا يُقام كامل الإسلام .

وفي تفسير هذه الآيات - على هذا النحو - قرر الإمام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٢٢٣هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] :

«أن معنى موت أولئك القوم هو أن العدو نكل بهم فأفنى قوتهم، وأزال استقلال أمتهم، حتى صارت لا تعد أمة، بأن تفرق شملها، وذهبت جامعتها، فكل ما بقى من أفرادها خاضعون للغالبيين ضائعون فيهم، مدغمون في غمارهم، لا وجود لهم في أنفسهم، وإنما وجودهم تابع لوجود غيرهم، ومعنى حياتهم هو : عودة الاستقلال إليهم! . . إن الجبن عن مدافعة الأعداء، وتسليم الديار، بالهزيمة والفرار، هو الموت المحفوف بالحزى والعار، وإن الحياة العزيزة الطيبة هي الحياة الملية المحفوظة من عدوان المعتدين . . . والقتال في سبيل الله . . . أعم من القتال لأجل الدين؛ لأنه يشمل - أيضاً - الدفاع عن الحوزة إذا هم الطامع المهاجم باغتصاب بلادنا والتمتع بخيرات أرضنا . . . فالقتال لحماية الحقيقة . . . كالقتال لحماية الحق، كله جهاد في سبيل الله . . . ولقد اتفق الفقهاء على أن العدو إذا دخل دار الإسلام يكون قتاله فرض عين على كل المسلمين»^(١٥١) .

فلا بد لإقامة الإسلام من وطن، الأمر الذي يجعل القتال لحماية حرية هذا الوطن - التي هي حرية مواطنيه - وارداً في شريعة الإسلام . . . فالحفاظ على الدين هو ذروة سنام مقاصد الشريعة الإسلامية . . . والحفاظ على حرية الوطن الإسلامي هو الشرط لإقامة الدين، والقيام بأمانة العمران التي هي المهمة الأعظمي من وراء استخلاف الله - سبحانه وتعالى - الجنس الإنسان . . . ولذلك، وقف الإسلام بالقتال - إذناً . . . وأمرأً وتحريضاً - فقط عند :

١ - الحفاظ على الدين، وحرية الدعوة إليه، وتحرير ضمائر المؤمنين به من الفتنة والإكراه . .

٢ - والحفاظ على الوطن، وصيانة حرите وحرية أهله من العدوان . .

فالقِتال - فى الإسلام - هو الاستثناء الذى لا يجوز اللجوء إليه إلا للدفاع الذى يفتنون المسلمين فى دينهم . . . أو يخرجونهم من ديارهم . . . ولقد كان منهاج الدعوة الإسلامية هو التجسيد لهذا منهاج . . .

فى البداية . . . وعندما تعرض له المسلمون من أذى فى عقيدتهم وفتنة عن دينهم واضطهاد تصاعد حتى اقتلعتهم من وطنهم - مكة - وجعلهم يهاجرون إلى يثرب (المدينة) - بعد هجرة العديد منهم إلى الحبشة - أذن الله - مجرد إذن - للمؤمنين فى القتال . . . ولقد كان الإخراج من الديار ، والفتنة فى الدين الأسباب التى ذكرها القرآن الكريم فى كل الآيات التى شرعت لهذا القتال .

فى الإذن بالقتال ، يقول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ (٣٨) أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير (٣٩) الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ﴿ [الحج : ٣٨-٤٠] . .

وعندما تطور الحال من «الإذن» فى القتال إلى «الأمر» به جاء القرآن الكريم ليضع الإخراج من الديار سبباً لهذا الأمر بالقتال : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (١٦٠) واقتلوهم حيث ثقتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ﴿ (١٩١) فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿

[البقرة : ١٩٠-١٩٢] .

فهو قتال دفاعى ، ضد الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم ، وفتنهم فى دينهم ، لتحرير الوطن الذى سلبه المشركون من المسلمين ﴿ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ (١٦) .

ذلك لأن منهاج الشريعة الإسلامية فى الدعوة إلى الله وإلى دينه ليس القتال ، وإنما هو الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هى أحسن : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ

بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين (١٢٥) وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصّابرين (١٢٦) واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون (١٢٧) إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴿ [النحل: ١٢٥-١٢٨].

بل لقد تميز الإسلام - في هذا الميدان - برفضه فلسفة «الصراع» لأنه يؤدي إلى أن يصرع القوى الضعيف، فيزيله، وينهى التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف، التي هي سنة من سنن الله - سبحانه وتعالى - في سائر المخلوقات . . . رفض الإسلام فلسفة «الصراع» وأحل محلها فلسفة «التدافع» الذي هو حراك يعدل المواقف، ويبعد التوازن والعدل، مع بقاء التعددية والتعايش والحوار والتفاعل بين مختلف الفرقاء : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٣-٣٥].

إن الإسلام لا يريد «الصراع» الذي ينهى «الآخر» «فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية (٧) فهل ترى لهم من باقي» [الحاقة: ٧، ٨] . . . وإنما «التدافع» الذي هو حراك يحل التوازن محل الخلل الذي يصيب علاقات الفرقاء المتمايزين .

كذلك يرفض الإسلام الفلسفات التي اعتبرت القتل والقتال وإزهاق الأرواح - جبلة جيل عليها الإنسان، وغريزة من غرائزه المتأصلة فيه . . . وفي مواجهة هذه الفلسفات - التي ذهبت إلى حد اعتبار الحرب طريقاً من طرق التقدم والتطور! - يقرر الإسلام أن القتال هو الاستثناء المكروه، وليس القاعدة . . . إنه ضرورة تُقدر بقدرها : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وليس هناك «مكتوب» - مفروض، وُصِفَ في القرآن الكريم بأنه «كُرْهُ» سوى القتال !

ولقد بينت السنة النبوية - وأكدت - هذه الفلسفة الإسلامية إزاء القتال، فقال رسول الله ﷺ : «لا تمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا، وأكثرُوا ذكر الله» - رواه الدارمي - .



وحتى هذا القتال - الذي يُكتب على المسلمين وهو كُره لهم - والذي وقف به الإسلام ودولته عند حدود القتال الدفاعي لحماية حرية العقيدة، وحرية الدعوة من الفتنة - التي هي أكبر من القتل المادي - ولحماية حرية الوطن - الذي بدونه لا يُقام الإسلام - . . . حتى هذا القتال - الاستثناء والضرورة - قد وضع الإسلام ودولته له «دستوراً أخلاقياً» تجاوز في سُمُوّه كل المواثيق الدولية التي تعارف عليها المجتمع الدولي نظرياً - (!!) - بعد أربعة عشر قرناً من ظهور الإسلام، وتطبيق المسلمين لقواعد الدستور الأخلاقي لهذا القتال .

وفي قواعد أخلاقيات دستور الفروسية الإسلامية هذا يروى الراشد الخامس عمر ابن عبد العزيز (٩١-١٠١هـ / ٦٨١-٧٢٠م) - رضي الله عنه - وهو على رأس السلطة التنفيذية - الخلافة - وليس في صفوف المعارضة! - يروى فيقول : «إنه بلغنا أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث سرية يقول لهم : «اغزوا باسم الله، في سبيل الله، تقاتلون من كفر بالله، لا تَغْلُوا (أي : لا تخونوا) ولا تغدروا، ولا تُمَثِّلُوا (أي : لا تمثلوا بجثث القتلى) ولا تقتلوا وليداً» - رواه مسلم ومالك في الموطأ .

ولقد صاغ أبو بكر الصديق (٥١ ق.هـ - ١٣هـ / ٥٧٣-٦٣٤م) - رضي الله عنه - وهو رأس الدولة - قواعد هذا الدستور الأخلاقي للقتال والحرب . في وثيقة إسلامية، عندما أوصى قائد جيشه يزيد بن أبي سفيان (١٨هـ / ٦٣٩م) وهو يودعه أميراً على الجيش الذاهب لرد عدوان البيزنطيين في الشام، فقال - في وثيقة الوصايا العشر - : «إنك ستجد قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله - الرهبان - فدعهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له . . . وإني موصلك بعشر : لا تقتلن امرأة . ولا صبيّاً، ولا كبيراً هرمّاً، ولا تقطعن شجراً مثمرّاً، ولا تخربين عامراً، ولا تعقرن شاة، ولا يعبراً إلا لماكله، ولا تحرقن نخلاً، ولا تفرقنه، ولا تغلل، ولا تحجبن» - رواه مالك في الموطأ .

فكانت هذه - «وثيقة الوصايا العشر» - دستور الآداب الإسلامية وأخلاقيات القتال، عندما يفرض على المسلمين القتال .



أما المرجفون الذين يزعمون أن سورة «براءة - التوبة» قد حضت على قتال المخالفين كافة للمسلمين . . . فإن فقه آيات هذه السورة - التي يغمزون ويلمزون فيها - يرد دعواهم هذه إلى نحورهم . . . ففي هذه الآيات يقول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فسيحوا في الأرض أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ الْيَمِّ (٣) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهَرُوا عَلَيْكُمْ أَمْذَنْهُمْ أَمْ لَا لَنْ يُبْعِدَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) إِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُواهُمْ وَاحْصِرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةَ يَرْحَمْنَكُمْ أَفَوَاهِهِمْ وَأَتَابِي قُلُوبِهِمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اسْتَشْرُوا بآيَاتِ اللَّهِ ثَمَّ قَلِيلًا فُصِدُوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَتَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتَمَنَّا الْكَفَرُ إِنَّهُمْ لَا آيِسَانُ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢) أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَنْتُمْ خَشِيتُوهُمْ قَالَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيَذْهَبُ غِيظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١ - ١٦] .

يرجف كثير من المرجفين - مستشرقين وعملاء لهم - حول هذه الآيات ، زاعمين أنها تحض على القتال والتربص بالمشركون في كل مكان ، وعلى القتل والإرهاب لهؤلاء المشركين . . . حتى لقد قال أحد عملاء وضحايا التخريب - متسائلاً تساؤل الإنكار والاستنكار - : لماذا يستشهد المسلمون دائماً بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تبرز الوجه السلمي المتسامح للإسلام ، ويتجاهلون النصوص الأخرى التي تحض على القتال والتربص بالمشركون تزلت بعد النصوص التي تحض على القتال والتربص بالمشركون تزلت بعد النصوص التي تؤكد التسامح والمساواة؟ . . . (١٧).

وهذا الإرجاف والغمز واللمز - بل والطعن - يجهل ويتجاهل الحقائق الصلبة التي تفصح عنها هذه الآيات - من سورة براءة - فهي تميز في المشركون بين توجهات ثلاثة :

١- مشركون معاهدون للمسلمين ، يحترمون العهود . . . والآيات تدعو المسلمين إلى الوفاء بالعهود لهؤلاء المشركين ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة : ٤] .

٢- ومشركون محايدون ، لم يحددوا موقفاً - مع أو ضد- ويريدون أن يعلموا الحقيقة ليتخذوا لهم موقفاً . . . وهذه الآيات تطلب من المسلمين إجابة هؤلاء المشركين ، وتأمينهم ، ووضع الحقائق أمام بصائرهم وأبصارهم . . . ثم تركهم أحراراً ، بل وحرستهم حتى يبلغوا مأمنهم ، ليقرروا ما يقررون ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة : ٦] .

٣- أما الفريق الثالث من المشركين ، فهم الذين يقاتلون المسلمين ، والذين احترقوا نقض العهود مع المسلمين ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وِلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعَذَّبُونَ﴾ [التوبة : ١٠] . . . ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ﴾ [التوبة : ١٢] . . . لقد ﴿نَكثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَخَلَعُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [التوبة : ١٢] .

فليس هناك تعميم لقتال كل المشركين في هذه الآيات - التي تعلق بها ويتعلق المرجفون الذين يتهمون الإسلام بالقتل والإرهاب - . . . لأن التبرص والقتال في هذه الآيات ليس لمطلق المشركين، ولا لكل المخالفين، وإنما هو رد لعدوان المعتدين الذين نقضوا العهد ونكثوا الأيمان وأخرجوا الرسول ﷺ والمؤمنين من ديارهم ﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣] . . .

فمعيار الإسلام ودولته، في السلم والسلام أو الحرب والقتال، ليس «الإيمان» و«الكفر» ولا «الاتفاق» و«الاختلاف» وإنما هو التعايش السلمي بين الآخرين وبين المسلمين، أو عدوان الآخرين على المؤمنين، بالفتنة في الدين أو الإخراج من الديار . . . وعن هذا المعيار للعلاقة بين الإسلام وبين الكافرين به والمنكرين له يقول القرآن الكريم: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَفَرْتُمْ مِنْهُمْ مُودَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْكُمْ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٧-٩] .

ولقد طبق المسلمون هذا المعيار في العلاقات مع المخالفين . . . فكان اليهود - بدولة المدينة المنورة - جزءاً من الرعية والأمة . . . ونص دستور هذه الدولة الإسلامية على أن «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم . . . ومن تبعنا من يهود فإن لهم النصر والأسوة، غير مظلومين ولا مُتَنَاصِرَ عليهم . . . وأن بطانة يهود ومواليهم كانوا يفسقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة . . . وأن بينهم النصح والنصيحة والبر المحض من أهل هذه الصحيفة دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه . . . فيهود أمة مع المؤمنين . . .»^(١٨) .

وبالنسبة لعموم النصارى، قررت المواثيق النبوية في هذه الدولة الإسلامية الأولى: «أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم»^(١٩) .



« أما الجزية التي فرضتها الدولة الإسلامية على الذين دخلوا في دولتها ولم يدخلوا في دينها، فإنها لم تكن اختراعاً إسلامياً، وإنما كانت ضريبة معروفة فيما سبق الإسلام من دول وقوانين . . . فجاء الإسلام ليتقل بها من إطار « التمييز - الظالم » إلى إطار « العدل »، الذي هو فريضة إسلامية، والروح السارية في حضارة الإسلام . فالخراج على الأرض : ضريبة تتساوى فيها الرعية، المسلمون منها وغير المسلمين .

وضريبة الجندية وحماية الدولة والدفاع عن رعيته وأمنها - المسلمين منها وغير المسلمين - كان المسلمون هم القائمين الأساسيين بأدائها، لاعتبارات أمنية اقتضتها المراحل الأولى من الفتوحات وتكوين الدولة . . . وحتى لا يجبر غير المسلمين على الانخراط في جيش يخوض معارك لا تقتنع بها ضمائرهم وثقافتهم، التي لم تكن قد توحدت مع الثقافة الإسلامية في تلك المرحلة المبكرة من تكوين الدولة الإسلامية . . . فكانت هذه الجزية بدلاً من الجندية، ولم تكن بدلاً من الإيمان بالإسلام . . . ويشهد على ذلك أنها لم تفرض إلا على القادرين على أداء الجندية، المالكين لما يدفعونه ضريبة لهذه الجندية . . . ولو كانت بدلاً من الإيمان بالإسلام لوجب على كل المخالفين في الدين . . . ولم يكن أمرها كذلك، فهي لم تفرض على الشيوخ ولا الأطفال ولا النساء ولا العجزة ولا المرضى من أهل الكتاب، وهؤلاء جميعاً مخالفون للمسلمين في الدين . . . كما أنها لم تفرض على الرهبان ورجال الدين، وهم من هم مخالفون في الدين ! . . . وكل الفقهاء المسلمين - باستثناء فقهاء المالكية - يقولون : إنها « بدل عن النصر والجهاد » (٢٠) .

ولقد شهدت على ذلك - أيضاً - التطبيقات الإسلامية لضريبة الجزية هذه . . .

« لقد فرضت على القادرين - بدنياً ومائياً - من نصارى نجران . . . وفي نظير ذلك كان إعناؤهم من الجندية . . . فنص عهد رسول الله ﷺ لنصارى نجران على أنه : « لا يُكَلَّف أحدٌ من أهل الذمة منهم الخروج مع المسلمين إلى عدوهم، لملاقاة الحروب ومكاشفة الأقران . . . وأن يكون المسلمون ذُبَاباً عنهم، وجواراً من دونهم » (٢١) .

« وفي البلاد التي أثر فيها غير المسلمين أداء ضريبة الجندية مع المسلمين ، لم تفرض عليهم الجزية ، بل كانوا متساوين مع المسلمين في القتال وفي نصيبهم من غنائم هذا القتال . . حدث ذلك في « جرجان » ، ونصت معاهدة القائد «سويد بن مقرن» مع أهلها عليه ، إذا جاء فيها : «ومن استعنا به منكم فله جزاؤه في معونته عوضاً من جزائه» (٢٢) . . . وحدث ذلك مع أهل «أذربيجان» ، ونصت عليه معاهدة القائد «عقبة بن فرقد» - عامل عمر بن الخطاب (٤٠ ق. هـ - ٢٣ هـ ٥٨٤ - ٦٤٤ م) - مع أهلها ، إذا جاء فيها : « . . . ومن حُشِر - أي استدعى للقتال - منهم في سنة وُضع عنه جزاء - أي جزية - تلك السنة . . . » (٢٣) . . .

وحدث ذلك - أيضاً - مع أهل «أرمينية» ونصت عليه معاهدة القائد «سراقه بن عمرو» (٣٠ هـ - ٦٥٠ م) - عامل عمر بن الخطاب - مع أهلها ، إذ نصت المعاهدة «على أن يوضع - يسقط - الجزاء - الجزية - عمن أجاب إلى ذلك الحشر - (الحشد للقتال) - والحشر عوض عن جزائهم - جزيتهم - ومن استغنى عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء - الجزية . . . » (٢٤) . . .

وحدث ذلك - أيضاً - مع «الجراجمة» ، سكان الجرجومة ، في شمالي سوريا ، بالقرب من أنطاكية . عندما حاربوا ، وهم على نصرايتهم ، ومعهم خلفاؤهم وأتباعهم ، في جيش المسلمين ، تحت قيادة «حبيب بن مسلمة القهري» (٢ ق. هـ - ٤٢ هـ ٦٢٠ - ٦٢٢ م) . . . وحدث ذلك - أيضاً - مع النصارى من أهل «حمص» ، عندما حاربوا في صفوف جيش «أبي عبيدة بن الجراح» (٤٠ ق. هـ - ١٨ هـ ٥٨٤ - ٦٤٤ م) في موقعة «اليرموك» ضد الروم البيزنطيين (٢٥) . . . وحدث ذلك - أيضاً - مع بني تغلب - وهم نصارى - أسقطها عنهم عمر بن الخطاب «لأنهم عرب يأنفون من الجزية» (٢٦) .

ويزيد من هذه الحقيقة وضوحاً - حقيقة أن الجزية كانت بدلاً من الجندية - على القادر على الجندية وعلى دفعها - وليست بدلاً من الإيمان بالإسلام ، ومن ثم فلم تكن سبباً في الضغط على الدخول في الإسلام - ما جاء في مفاوضات «شهربراز» ملك «الهاب» مع القائد المسلم «عبد الرحمن بن ربيعة» (٣٢ هـ - ٦٥ م) عند عقد الصلح

بينهما سنة ٣٢ هـ، فلقد قال «شهر براز»: «أنا اليوم منكم، ويدي مع أيديكم، وصغوى - «ميلي» - معكم . . . وجزيتنا إليكم: النصر لکم والقيام بما تحبون . . .» ولقد أجب إلى طلبه بعد مشاورة القائد «عبد الرحمن بن ربيعة» مع «سراقه بن عمرو» (٣٠ هـ - ٦٤٥ م) . . .

ولقد استمر ذلك سنة متبعة في علاقات الدولة الإسلامية بشعوب البلاد المفتوحة . . . حتى ليقول الطبري - عن إسقاط الجزية عن الذين انخرطوا في الجندية من غير المسلمين - : «وصار ذلك سنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين . . .»^(٢٧).



تلك هي حقيقة النظرة الإسلامية إلى القتال . . . إنه الاستثناء لا القاعدة . . . وهو الاستثناء المكروه . . . ولا يجوز اللجوء إليه إلا دفاعاً عن حرية الاعتقاد والضمير . . . وحرية الوطن، الذي بدون حريته يستحيل إقامة الاعتقاد الديني على النحو الذي أراده الله - سبحانه وتعالى - في شريعة الإسلام . . .

وإذا كان بعض المفترين لا يزال يردد أكذوبة انتشار الإسلام بالسيف والقتل والقتال . . . فإننا نلفت أنظارهم إلى أن كل المعارك التي دارت في الفتوحات الإسلامية إنما كانت ضد جيوش الغزو والاحتلال الرومانية والفارسية، ولم تدر معركة واحدة بين جيوش الفتح التحريري الإسلامية وبين أهل البلاد المفتوحة . . . بل لقد قاتل أهل البلاد المفتوحة مع الجيوش الإسلامية - وهم على دياناتهم القديمة - ضد الروم والفرس . . . وشهد أساقفتهم - الذين عاصروا هذه الفتوحات وشهدوها - على أن الفتوحات الإسلامية قد كانت إنقاذاً لهم ولدياناتهم من الإبادة التي مارسها ضدهم المستعمرون الرومان . . . فقال الأسقف «يوحنا النقيوس» - وهو شاهد على الفتح الإسلامي لمصر - : «إن الله الذي يصون الحق - لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين، ولم يرحمهم لتجرؤهم عليه، وردهم إلى يد الإسماعيليين - (العرب المسلمين - أبناء إسماعيل - عليه السلام) .

ثم نهض المسلمون وحازوا كل مصر، وكان عمرو بن العاص (٥٠ ق . هـ - ٤٣ هـ ٥٧٤ - ٦٦٤ م) يقوى كل يوم في عمله، ويأخذ الضرائب التي حددها، ولم يأخذ شيئاً

من مال الكنائس ، ولم يرتكب شيئاً ما سلباً أو نهباً ، وحافظ على الكنائس طوال الأيام...»^(٢٨) .

ويؤكد على هذه الحقيقة - أن القتال في الفتوحات الإسلامية إنما كان ضد الجيوش الغازية التي استعمرت الشرق وقهرته عشرة قرون... وأنه كان تحريراً لأوطان الشرق وضمائر شعوبه - الأسقف «ميخائيل السرياني» فيشير إلى أن الكنيسة المصرية - اليعقوبية - كانت سرية ، لا يعترف بها الرومان ! كما كانت كنائسها مغلقة من قبل المذهب البيزنطي - الملكاني - وأنها قد ظلت كذلك حتى حررها الفتح الإسلامي ، فكان بقاؤها وحياتها «هبة الإسلام» ! . . . يشهد هذا الأسقف على ذلك فيقول : «إن الإمبراطور الروماني لم يسمح لكنيستنا بالظهور - أي لم يكن معترفاً بها ! - ولم يصغ إلى شكاوى الأساقفة فيما يتعلق بالكنائس التي نهبت ، ولهذا ، فقد انتقم الرب منه .

لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا وأديرتنا بقسوة بالغة ، واتهمونا دون شفقة ، ولهذا جاء إلينا من الجنوب أبناء إسماعيل لينقذونا من أيدي الرومان ، وتركنا العرب غارس عقائدنا بحرية ، وعشنا في سلام»^(٢٩) .

ولقد حرر الفتح الإسلامي كنائس مصر من الاغتصاب البيزنطي ، لا ليجعلها مساجد إسلامية ، وإنما ردها إلى نصارى مصر... وأعطى عمرو بن العاص الأمان للبطرك الوطني «بتيامين» (٣٩ هـ ٦٥٩ م) فعاد بعد ثلاثة عشر عاماً من الهرب ! . . . عاد إلى شعبه ، وتسلم كنائسه... وطاف بها في فرح عبر عنه الأسقف «يوحنا القيقوسي» بقوله : «ودخل الأنبا بتيامين بطرك المصريين مدينة الإسكندرية ، بعد هربه من الرومان ثلاثة عشر عاماً ، وسار إلى كنائسه ، وزارها كلها... وكان كل الناس يقولون : هذا النفي ، وانتصار الإسلام كان بسبب ظلم هرقل الملك ، وبسبب اضطهاد الأرثوذكسيين... وهلك الروم لهذا السبب ، وساد المسلمون مصر...»^(٣٠) .

وغير شهادات هؤلاء الشهود الثقات على مقاصد القتال في الفتوحات الإسلامية . شهد الكثيرون من علماء الغرب على الانتشار السلمي للإسلام... ومن هؤلاء العلماء المستشرقة الألمانية الحجة الدكتور «سيجيريد هونكه» التي كتبت تقول :

«... اليوم، وبعد انصرام أكثر من ألف عام، لا يزال الغرب النصراني متمسكاً بالحكايات المختلفة الخرافية التي كانت الجذات يرونها، حيث زعم مختلقوها أن الجيوش العربية، بعد موت محمد، نشرت الإسلام «بالنار وبحد السيف البتار» من الهند إلى المحيط الأطلنطي، وبلغ الغرب على ذلك بكافة الوسائل: بالكلمة المنطوقة، أو المكتوبة، والجرائد والمجلات، والكتب والمنشورات، وفي رأى العام، بل فى أحداث حملات الدعاية ضد الإسلام.

«... لا إكراه فى الدين» [البقرة: ٢٥٦]: تلك هى كلمة القرآن الملزمة... فلم يكن الهدف أو المغزى للفتوحات العربية نشر الدين الإسلامى، وإنما بسط سلطان الله فى أرضه، فكان للنصرانى أن يظل نصرانياً ولليهودى أن يظل يهودياً، كما كانوا من قبل. ولم يمنعهم أحد أن يؤدوا شعائر دينهم، وما كان الإسلام يبيح لأحد أن يفعل ذلك... ولم يكن أحد ليتزل أذى أو ضرراً بأحبارهم أو قساوستهم ومراجعهم، ويبيعهم وصوامعهم وكنائسهم...

لقد كان أتباع الملل الأخرى - وبطبيعة الحال من النصراني واليهود - هم الذين سعوا سعيًا لاعتناق الإسلام والأخذ بحضارة الفاتحين، ولقد ألحوا فى ذلك شغفًا وافتتانًا، أكثر مما أحب العرب أنفسهم، فاتخذوا أسماء عربية وثياباً عربية، وعادات وتقاليد عربية، واللسان العربى، وتزوجوا على الطريقة العربية، ونطقوا بالشهادتين، لقد كانت الروعة كامنة فى أسلوب الحياة العربية، والتمدن العربى، والسمو والمروءة والجمال، وباختصار: السحر الأصيل الذى تتميز به الحضارة العربية - بغض النظر عن الكرم العربى والتسامح وسماحة النفس - كانت هذه كلها قوة جذب لا تقاوم... إن سحر أسلوب المعيشة العربى ذاك قد اجتذب إلى فلكه الصليبيين إبان وقت قصير، كما تؤكد شهادة الفارس الفرنسى «قولشير الشارتى»: «وها نحن الذين كنا أبناء الغرب قد صرنا شرقيين!... أفبعد كل هذا ننتقل إلى الغرب الكتيب؟! بعدما أفاء الله علينا، وبدل الغرب إلى الشرق؟! بهذا انتشر الإسلام... وليس بالسيف أو الإكراه...» (٣١).

وشهد بذلك - أيضاً - المستشرق الإنجليزى البارز «ألفريد جيزوم - A. Guil gaume» (١٨٨٨-١٩٦٥م) فقال: «لقد استقبل العرب - على الأغلب -

فى سوريا ومصر والعراق بترحاب؛ لأنهم قضوا القضاء المبرم على الابتزاز الإمبراطورى، وأنقذوا المسيحية المنشقة من الضغط الكريه الذى كانت تعانيه من الحكومة المركزية - البيزنطية - وبرهنوا بذلك على معرفة بالمشاعر والأحاسيس المحلية أكثر من معرفة الأعراب»^(٣٢).

تلك هى حقيقة القتال فى الإسلام . . . وتلك هى مقاصده:

- رد العدوان عن حرية الاعتقاد والضمير، حتى لا تكون فتنة . . . ويكون الدين والتدين كله لله . . .

- رد العدوان عن حرية الوطن، الذى بدون حريته لا يمكن أن يكون هناك مواطن حر . . . والذى بدون حريته لا يمكن أن تتحقق حرية إقامة فرائض الإسلام.

إنه مجرد شعبة من شعب الجهاد . . . وهو الاستثناء - لا القاعدة - والضرورة - التى تُقدَّر بقدرها . . . وهو الفريضة المكروهة . . . وليس الجيلة التى تقود إلى التقدم كما زعمت فلسفات وثقافات خارج نطاق الإسلام !



حقيقة الإرهاب

وإذا كان غريباً - بل وعجيباً - أن تشن أمريكا - منذ «قارعة» ١١ سبتمبر ٢٠٠١م - حرباً عالمية على ما تسميه «الإرهاب» دون الاتفاق على معنى هذا «الإرهاب»!! بل وفي ظل الإصرار على رفض عقد مؤتمر دولي تتفق فيه الحضارات العالمية وثقافتها على تعريف لهذا «الإرهاب»!!

إذا كان ذلك غريباً وعجيباً - بل ومريباً - فإن السر في هذا الموقف الغريب والعجيب والمريب هو أن هذه الحرب العالمية الجديدة قد أرادها البعض حرباً على «الإسلام» تحت عنوان «الإرهاب»!

ويشهد على هذه الحقيقة - التي لم يعد بالإمكان إخفاؤها - :

١- أن الرئيس الأمريكي «جورج بوش الصغير» قد وصف هذه الحرب في ١٦ سبتمبر ٢٠٠١م - أي قبل بدء التحقيق في «قارعة» ١١ سبتمبر - بأنها «حملة صليبية» أي حرب دينية مقدسة!

٢- ولم تفلح محاولات الاعتذار عن هذا الوصف، بالقول إنه مجرد «زلة لسان» . حتى إن مدير إذاعة الفاتيكان «الكاردينال باسكوالي بورجوميو» قد أكد دقة هذا الوصف، وطبيعة هذه الحرب الأمريكية، فقال : «في الوقت الذي يدعو الفاتيكان إلى التعقل، ويشجع العمل الدبلوماسي، ويدافع عن الحق الدولي - أي الشرعية الدولية - ترى في الجانب الآخر قوة عظمى - أمريكا - تقودها إدارة خولت لنفسها مهمة إنقاذية - مقدسة - واتخذت لهجة ومواقف صليبية!»^(٣٣)

٣- كما عبر بابا الفاتيكان «يوحنا بولس الثاني» (١٩٢٢-٢٠٠٥م) عن :
«خشيت من أن تثير الحرب الأمريكية على العراق صراعاً دينياً . . . بين المسيحيين
والمسلمين» .

٤- وقال الكاردينال «بيولاچي» - مندوب البابا في المساعي الدبلوماسية لتجنب
الحرب على العراق - أوائل سنة ٢٠٠٣م : «إنها حرب ستقودنا إلى مستقبل مظلم
سيقوض فرص الحوار بين المسيحية والإسلام . . .» (٣٤) .

٥- وقال «الأنبا يوحنا قلته» - نائب البطريرك الكاثوليكي في مصر - : «إن بوش
يستخدم المسيح درعاً والصليبية ثوباً للدفاع عن مصالح أمريكا المادية . . . وأنه كان
يقصد تماماً معنى عبارة «الحملة الصليبية» . . . ولم تكن أبداً زلة لسان . . .» (٣٥) .

٦- ووصف الرئيس الأمريكي الأسبق «جيمي كارتر» أيديولوجية الإدارة
الأمريكية التي شنت هذه الحرب ، بأنها أيديولوجية «المؤتمر المعمداني للجنوب
الأمريكي - ساوثيرن باپتيست كونفشنون» - المعروفة بالالتزام تجاه إسرائيل من
منطلقات ثيولوجية ضيقة تستند إلى فكرة آخر مرحلة حياتية قبل حلول يوم
الدينونة» (٣٦) .

٧- وأعلن السناتور الأمريكي «إدوارد كنيدي» والسناتور «بابريك ليهي» : «إن
الإدارة الأمريكية مدفوعة إلى هذه الحرب «بحماسة مسيحية» !» (٣٧) .

٨- ووصفت مجلة «نيوزويك» - الأمريكية - قائد هذه الحرب - الرئيس «بوش -
الصغير» - بأنه «حامل البشارة . . . الذي يؤمن بأن حربه على العراق ستكون حرباً
عادلة وفق المفهوم المسيحي كما شرحه القديس أوغسطين (٣٥٤-٤٣٠م) ، وفصله
كل من توما الأكويني (١٢٢٥-١٢٧٤م) ومارتين لوتر (١٤٨٣-١٥٤٦م)
وآخرون . . . وأنه - بوش - عندما استخدم مصطلح «الأشرار» قد نبش هذه الكلمة
مباشرة من المزامير . . . وأنه يفكر في سياسة خارجية تستند إلى الإيمان المسيحي . . .
 ويفكر في حرب باسم الحرية المدنية - بما في ذلك الحرية الدينية - في القلب القديم
للإسلام العربي . . . ويحظى بدعم من قاعدته في الجناح السياسي للمؤتمر المعمداني
الجنوبي ، من أمثال القساوسة «ريتشارد لاند» ، و«فرانكلين جراهام» - الأب الروحي

لبوش - والذي سب رسول الإسلام ، ويندد بالإسلام باعتباره إيماناً غنيقاً فاسداً! . . . ولا يخفى - مع المبشرين الإنجليين - رغبتهم تحويل المسلمين إلى المسيحية - لا سيما في بغداد . . .!!^(٣٨)

في الوقت الذي شهد فيه هؤلاء الشهود - ومعهم كثيرون من أهلها - على طبيعة هذه الحرب العالمية ، التي شنت على الإسلام ، عقب «قارعة» ١١ سبتمبر ٢٠٠١م . . . شهد كذلك كثيرون من المفكرين الاستراتيجيين الذين يخططون لصناعة القرار الأمريكي على ذات الحقيقة . . . حقيقة أن هذه الحرب ليست على «الإرهاب» ، إنما هي حرب داخل الإسلام ، ليتخلى عن طبيعته ومنهاجه الشامل للدين والدولة ، والسياسة والقانون ، والقيم والأخلاق ، والدنيا والآخرة . . . وذلك حتى يقبل الإسلام - بدلاً من ذلك - بالقيم الغربية ، والحداثة الغربية ، والعلمانية الغربية . . . والمبدأ المسيحي الذي يدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله .

ومن بين عشرات الشهادات الأمريكية والغربية على هذه الحقيقة ، حقيقة أنها حرب على الإسلام ، تحت دعاوى «الإرهاب» - الذي حرصوا على عدم تعريفه . . . من بين عشرات الشهادات نختر - مراعاة للمقام - شهادة المفكر الاستراتيجي الأمريكي «فرانسيس فوكوياما» التي يقول فيها - بصريح العبارة - : «إن الصراع الحالي ليس ببساطة ضد الإرهاب . . . ولكنه صراع ضد العقيدة الإسلامية الأصولية التي تقف ضد الحداثة الغربية . . . وضد الدولة العلمانية . . . وهذه الأيديولوجية الأصولية تمثل خطراً أكثر أساسية - في بعض جوانبه - من الخطر الذي شكلته الشيوعية . . . والمطلوب هو حرب داخل الإسلام . . . حتى يقبل الحداثة الغربية . . . والعلمانية الغربية . . . والمبدأ المسيحي : «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله . . .!!»^(٣٩) .

لهذه الحقيقة - حقيقة أنها حرب على الإسلام ، الرافض للحداثة الغربية ، والقيم الغربية ، والعلمانية الغربية . . . وليست حرباً على الإرهاب - الذي اتخذ - في هذه الحرب - وظيفة الستار لإخفاء الحقيقة والتصويه عليها - كان الحرص - طوال تلك السنوات - على رفض الاقتراحات العربية والإسلامية التي تلح على ضرورة عقد مؤتمر دولي لتحديد معنى «الإرهاب» وللتمييز بينه وبين «الجهاد الإسلامي» و«القتال

المشروع «لتحرير الأوطان من الاستعمار... الأمر الذي يزيد من أهمية وضرورة التحديد والتحرير للمعنى والمضمون والمفهوم الإسلامى للإرهاب .

إن المفهوم الغربى لمصطلح «الإرهاب - Террор» والذي يعنى استخدام العنف غير المشروع لترويع الآمنين ، وإكراههم على قبول ما لا يريدون ، وخصوصاً عندما يكون هذا الإرهاب غمارسه السلطة الحاكمة ضد المحكومين ، أى : إرهاب الدولة الذى يبت الرعب فى نفوس المحكومين^(٤٠) إن هذا المفهوم الغربى للإرهاب هو أبعد ما يكون عن مفهوم هذا المصطلح فى لغتنا العربية . . . وفى القرآن الكريم - الذى هو كتاب العربية الأول . . . وديوان شريعة الإسلام . . .

بل إن الإسلام يبرئ سائر الديانات السماوية من أن يكون الإرهاب والعنف والإكراه والترويع للآمنين سبيل أى منها فى الدعوة إلى شريعة أى دين من تلك الديانات .

* فمنهاج الدعوة إلى اليهودية فى شريعة موسى - عليه السلام - هو «القول اللين» ، وليس العنف والحرب ، والقتال والإرهاب : «أذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا فى ذكرى (٤٢) أذهباً إلى فرعون إنه طغى (٤٣) فقولا له قولاً لنا لعلّك يتذكر أو يخشى (٤٤) قالاً ربنا إنما نخاف أن يقرط علينا أو أن يطغى (٤٥) قال لا تخافا إني معكما أسمع وأرى (٤٦) فأتياه فقولا إنا رسولك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى» [طه : ٤٢-٤٧] .

ولأن موسى - عليه السلام - لم يقم دولة ، ولم يقد جيشاً ، ولم يخض حرباً ولا قتالاً . . . وإنما ولد ونشأ وبعث ومات ودفن فى مصر . . . فلقد ظلت شريعته الحقيقية بريئة من أى إكراه أو عنف أو إرهاب . . .

* وكذلك الحال مع النصرانية التى جاء بها عيسى ابن مريم - عليه السلام - فهى شريعة الصوفية المسالمة ، والسلام الصوفى ، التى بلغت فى السلام والمسالمة حدوداً ومثلاً ربما عزت على التطبيق فى نطاق هذا العالم .

ولذلك قال المسيح : إن مملكته ليست فى هذا العالم! . . . فبراءة النصرانية - ومنهجها فى الدعوة - من العنف والإكراه والإرهاب الذى يروِّع الأمنين ، براءة لا تحتاج إلى كثير حديث . . .

✳ وكذلك الحال مع منهاج الدعوة الإسلامية - فى الدعوة إلى الله - فلقد جاءت مؤكدة على المنهج الإلهى فى الدعوة إلى الإيمان الدينى . . منهاج الحكمة ، والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هى أحسن . . . لأن هذا المنهج هو الوحيد الذى يثمر إيماناً وتصديقاً قلبياً يبلغ مرتبة اليقين . . . بينما الإرهاب - بمعنى ترويع الأمنين وإكراههم على ما لا يريدون - هو سبيل التفاق - الذى هو أشد سوءاً من الشرك الصراح ، والكفر البواح - وليس سبيل الإيمان بأى حال من الأحوال . . .



أمام أولئك الذين يستندون إلى ورود الإشارة فى القرآن الكريم - بسورة الأنفال - إلى الإرهاب ، فإن خطأهم القاتل - هذا إذا حسنت النوايا . . . وساء الفهم - هو فى وقوفهم عند المصطلح ، مغفلين تميز مفهوم هذا المصطلح فى القرآن الكريم واللغة العربية عن مضمونه الغربى الذى شاع ويشيع الآن فى دوائر الفكر والثقافة والسياسة والإعلام . . . ولو أنهم فهموا سياق الآيات القرآنية التى ورد فيها هذا المصطلح - بسورة الأنفال - ثم جمعوا إلى آيات الأنفال كل الآيات التى ورد فيها هذا المصطلح - ومشتقاته - بالقرآن الكريم ، ثم فسروا هذه الآيات ، وفقهوا هذا المصطلح وفق مضمونه العربى وسياقه القرآنى ، لما تطرق إلى ذهن أحد أن هناك أدنى علاقة بين الإسلام وبين الإرهاب - بمعنى ترويع الأمنين بالعنف والعدوان والإكراه - . . .

إن آيات سورة الأنفال تتحدث عن المشركين الذين يقاتلون المسلمين ، بفتنتهم فى دينهم ، وإخراجهم من ديارهم ، وتخص بالحديث قومًا من هؤلاء المشركين المقاتلين احترقوا الخيانة للعهود ، وأخذ المسلمين على غرة ، رغم ما بينهم من عهود للسلم والأمان . . . فتطلب هذه الآيات القرآنية من المسلمين أن يعدوا من العدة ، ويتخذوا من القوة ما يرهب ويخيف - أى يردع - هؤلاء الذين مردوا على الخيانة ، ونقض العهود ، والغدر والعدوان . . . ما يردعهم عن هذه الخيانة وهذا العدوان . . .

يخاطب الله - سبحانه وتعالى - رسوله ﷺ في هذه الآيات فيقول :

﴿وَأَمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلَا يُحْسِنُ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبْقًا إِنَّهُمْ لَا يَعْزِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلِبُونَ (٦٠) وَإِنْ جُنَحُوا لِلْسَّلَامِ فَأَجْزَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِنْ يَرِيدُوا أَنْ يَخُدُّوكُمْ فَإِنْ حَسِبَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدُكَ بِبَصَرِهِ بِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٨-٦٣].

فمعنى الإرهاب -هنا- هو التخويف لردع الخونة والمخادعين والغادرين ، كي لا يخذلوا بالمسلمين المعاهدين . . . وهو تخويف يثمره إعداد القوة الرادعة . . . وليس تخويف العدوان والعنف والإكراه ، أى أنه التخويف الذى ينفى العنف والإكراه والقتال . . . فهو كالعقوبة الرادعة ، إعلانها يمنع ويردع عن الجريمة ، ومن ثم يمنع تطبيقها . . . ولا علاقة لهذا الإرهاب -بهذا المعنى- بترويع الأمنين ، وإكراههم بالعنف والقتال والإكراه -الذى هو معنى مصطلح «الإرهاب -Terror» فى الفكر الغربى .

إن امتلاك الاتحاد السوفييتي -إبان الحرب الباردة . . . فى منتصف القرن العشرين- للسلاح -الرادع- النووى والهميدروچينى ، هو الذى أُرهب -ورددع- أمريكا وأخافها من العدوان الذرى على السوفييت . . . فتحقق الأمن والأمان للعالم من هذه الكارثة النووية . . . وكذلك الحال مع امتلاك باكستان للرادع النووى ، هو الذى جعل استخدام الهند لسلاحها النووى ضد باكستان أمراً مستحيلاً . . . بل لقد فتح توازن الردع النووى نوافذ السلام بين البلدين . . . ولو كانت اليابان -سنة ١٩٤٥م- تمتلك الرادع النووى لأرعبت وأخافت أمريكا ، ولنجت هيروشيما ونجراكي من الكارثة النووية التى حاقت بهما فى ذلك التاريخ . . .

وهنا يكون الإرهاب -بمعنى التخويف الرادع للأعداء- هو الضمان لتحقيق الأمن والسلام للجميع .



ويشهد على هذه الحقيقة المفاهيمية - مع السياق الذي وردت به آيات سورة الأنفال - معنى مصطلح الإرهاب في العربية - لغة القرآن الكريم - . . .

ونحن عندما نعود إلى «الراغب الأصفهان» في كتابه: (المفردات في غريب القرآن) نجد أن معنى الإرهاب - في القرآن ولغته العربية - هو على الضد من العنف الذي يروع الأمنين ويرعبهم . . . فهو من «الرعبة»، بمعنى المخافة، مع تحرر واضطراب» .

وليس هناك عاقل يمكن أن يفسر المخافة والرعبة والخشية بالعنف الذي يروع الأمنين ويرعبهم ! . . . وتشهد على ذلك كل الآيات القرآنية التي وردت فيها إشارات إلى هذا المصطلح - وتصريفاته اللغوية - : ﴿ ولما سكنت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾ [الأعراف : ١٥٤] أي للذين يخافون ربهم ويخشونه .

﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون ﴾ [البقرة : ٤٠] أي : خافوني واحشوني ، ولا تخشوا أحداً سواي .

﴿ وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياي فارهبون ﴾ [النحل : ٥١] أي : أفردوا الله - سبحانه وتعالى - بالمراقبة والخشية ؛ لأنه المتفرد بالالوهية وحده لا شريك له .

﴿ وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ﴾ (١١٣) قال نعم وإنكم لمن المقربين (١١٤) قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين (١١٥) قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴾ [الأعراف : ١١٣-١١٦] . . . أي : أخافوهم خوفاً شديداً .

﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امْكثوا إني آنست نارا أعلني آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ (٢٤) فلما أتاها نودي من

شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين (٣٠) وأن ألقى عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان وكى مدبراً ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين (٣١) اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذالك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴿ [القصص: ٢٩-٣٢] أى : من الخوف .

﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لنن أخرجنهم لنخرجن معهم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون (١١) لنن أخرجوا لا يخرجون معهم ولنن قوتلوا لا نصرونهم ولنن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون (١٢) لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون (١٣) لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى مُحَصَّنَةٍ أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾ [الحشر: ١١-١٤] أشد رهبة : أشد تخويفاً .

﴿ وزكريا إذ نادى ربه رب لا تدركني فرداً وأنت خير الوارثين (٨٤) فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين ﴿ [الأنبياء: ٨٩-٩٠] . . . ﴿ رغبا ورهبا ﴾ : أى رجاء رحمتنا ، وخوفاً من عذابنا .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فيشربهم بعذاب أليم ﴾ [التوبة: ٣٤] . ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون (٨٢) وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاتكنا مع المشاهدين ﴾ [المائدة: ٨٢-٨٣] .

... ﴿ وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون (٣٠) اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو

سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿التوبة: ٣٠-٣٢﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾

[الحديد: ٢٦-٢٧].

فالرهبان : هم الذين يبالغون في الخوف من الله وفي خشيته . . . والرهبانية : هي المبالغة في الخشية من الله . . . وليس في أى من مضامين هذه المصطلحات القرآنية - يرهبون . . . فارهبون . . . تُرهبون . . . استرهبوهم . . . الرهب . . . الرهبة . . . الرهبان . . . الرهبانية - ما يشى من قريب أو بعيد للمعنى الغربى للإرهاب . . . معنى : العنف الذى يروج الأبرياء والأمينين ويرعبهم .

وإذا كان بعض المرجفين المقترين يذهبون - رغم هذه الحقائق التى قدمناها - إلى اتهام الإسلام بالتأسيس للإرهاب . .

فيقول الزعيم «الدينى - السياسى» القس الأمريكى «بات روبرتسون» - مؤسس جماعة «التحالف السياسى المسيحى» - التى تسيطر على الكونجرس الأمريكى ، والحزب الجمهورى ، والإدارة الأمريكية - وهو مرشح أسبق للرئاسة الأمريكية . . . والأب الروحى للرئيس «بوش - الصغير» الذى وُلِدَ - بوش - على يديه ولادته المسيحية الجديدة . . . ! . . . يقول هذا القس :

«إن الدين الإسلامى دعا إلى العنف . . . وأنه بالنظر إلى المعنى الحقيقى لآيات قرآنية، فإن أسامة بن لادن أكثر وفاء لدينه الإسلامى من آخرين . . .»^(٢١)

ويقول المستشرق الصهيونى الأمريكى «برنارد لويس» :

«إن إرهاب اليوم هو جزء من كفاح طويل بين الإسلام والغرب... فالنظام الأخلاقي الذي يستند إليه الإسلام مختلف عما هو في الحضارة اليهودية/ المسيحية - الغربية- وآيات القرآن تصدق على ممارسة العنف ضد غير المسلمين... وهذه الحرب هي حرب بين الأديان!!» (٤٢)

وتقول «مارجريت تاتشر» - رئيسة وزراء إنجلترا الأسبق - :

«إن تحدى الإرهاب الإسلامى الفريد لا يقف عند أسامة بن لادن، وإنما يشمل حتى الذين أدانوا هجمات الحادى عشر من سبتمبر... على أمريكا... والذين انتقدوا أسامة بن لادن وطالبان، لكنهم يرفضون القيم الغربية، وتعارض مصالحهم مع مصالح الغرب!!» (٤٣)

إذا كان بعض المفترين قد اتهموا الإسلام بالتأسيس للإرهاب - بمعنى قتل الأبرياء وترويع الأمنين - ثم فضحتهم أعلامهم وأستهم عندما اعتبروا «رفض القيم الغربية... ومعارضة الأطماع الغربية» إرهاباً وعنفاً دموياً!! فإننا نلفت أنظارهم إلى «النفاق الفكرى» الذى جعلهم تهمون «الضحية» ويرعون «الجنة»!! نقول لهم :

- ألم تروا الممارسات التى تتعرض لها شعوب إسلامية كثيرة، قد غدت ضحايا وفرائس للعنف الغربى الصهيونى... فى فلسطين... والعراق... والشيشان... وتايلاند... وبورما... والفيليبين... وغيرها من بلاد الإسلام!!

- إن إخراج الناس من ديارهم وأوطانهم، وتحويلهم إلى لاجئين، هو عنف وإرهاب وترويع للأبرياء والأمنين - وأغلب اللاجئين على النطاق العالمى هم من المسلمين!!

- وإن نظرة على تاريخ العلاقات بين الغرب والشرق، لتضع يدنا وأبصارنا وبصائرنا على قرون الغزو والعنف والقهر الثقافى والسياسى والدينى والحضارى الذى مارسه الغرب ضد الشرق أغلب قرون ذلك التاريخ :

- عشرة قرون من الغزو والقهر الإغريقى / الرومانى / البيزنطى - من «الإسكندر الأكبر» (٣٥٦-٣٢٣ ق.م) - فى القرن الرابع قبل الميلاد - وحتى «هرقل» (٦١٠-٦٤١م) - فى القرن السابع للميلاد - ...

- وقرنان من الحروب الصليبية (٤٨٩-٦٩٠هـ-١٠٩٦-١١٩١م).

- وخمسة قرون هي عمر الغزوة الغربية الحديثة - التي بدأت منذ إسقاط غرناطة (٨٩٧هـ-١٤٩٢م) بالالتفاف حول العالم الإسلامى . . . ثم استعمرت سائر أقطار الإسلام - وهى الغزوة التى نعالج هيمتها حتى هذه اللحظات! . . .

- وإن نظرة على خريطة الشرق وعلى خريطة الغرب ستضع أيدينا وأبصارنا وبصائرنا على الحقيقة التى تقول: أين هو الغزو والاحتلال والاستغلال الذى يروع الأمنين ويهرّب الأبرياء؟! . . .

- إن القواعد العسكرية الغربية عملاً ديار الإسلام .

- ومئات الآلاف من الجنود الغربيين يحتلون الكثير من أوطان عالم الإسلام .

- ومئات الشركات الغربية العابرة للقارات والجنسيات تنهب ثروات عالم الإسلام .

بينما تخلو خريطة الغرب من أى وجود للإسلام أو نفوذ للمسلمين . . . وحتى الأفراد المسلمين الذين يعيشون فى المجتمعات الغربية قد غدوا - وخاصة بعد «قارعة» سبتمبر ٢٠٠١م - ضحايا لألوان من التمييز والترويع والسجن والاعتقال «بأدلة» سرية لا تعلن، ولا يعرفها حتى المحامون!! . . . واعتقالات مؤبدة مدى الحياة، دونما إعلان لسبب الاعتقال!! . . . فقط للاشتباه أو لأنهم مسلمون!! . . . الأمر الذى يذكرنا بكلمات المستشرق الفرنسى «جاك بيرك» (١٩١٠-١٩٩٥م) التى قال فيها - عن تاريخ علاقة الغرب بالإسلام - :

«إن الإسلام الذى هو آخر الديانات السماوية الثلاث، والذى يدين به أزيد من مليار نسمة فى العالم، والذى هو قريب من الغرب جغرافياً، وتاريخياً، وحتى من ناحية القيم والمفاهيم . . . قد ظل، ويظل حتى هذه الساعة بالنسبة للغرب :

ابن العم المجهول . . .

والأخ المرفوض . . .

والمتكور الأبدى . . .

والمبعد الأبدى . . .

والمتهم الأبدى . . .

والمشتبه فيه الأبدى . . .^(٤٤)

فأين هو الإرهاب الذى يروج الأبرياء والأمنين ؟

ومن هم الذين يقتنون ويمارسون هذا اللون من الإرهاب ؟!

- وإذا كان «التراث اليهودى» - وليست شريعة موسى - عليه السلام - قد غدت مكوناً من مكونات الحضارة الغربية - التى تمارس مؤسساتها الإمبريالية - وليس إنسانها - هذه الممارسات مع الشرق الإسلامى . . . ومع المسلمين . . . فلإننا نقرأ فى هذا التراث اليهودى القديم دعوة إلى إبادة «جميع الشعوب الذين على وجه الأرض . . . وأكل كل الشعوب أكلاً . . . دون أن تقطع لهم عهداً» ولا تشفق عينك عليهم . . . بل تمحو ذكراهم من تحت السماء - مثل العماليق - !! - سفر التثنية ، إصحاح ٧ : ١-٦ ، ١٤-١٦ ، إصحاح ٢٠ : ١٠-١٦ ، إصحاح ٢٥ : ١٩ . . .

كما نقرأ بهذا «الفكر» - فى عصرنا الراهن - الفتاوى الحاخامية التى تضع هذا «التراث الدموى» فى الممارسة والتطبيق على أرض فلسطين . . . وذلك من مثل فتوى الحاخام الصهيونى «العقيد . أ . فيدان (زيمبل)» التى يقول فيها للجنود الصهاينة المحتلين للضفة الغربية :

«إن الهالكاء - الشريعة - تحض على قتل حتى المدنيين الطيبين»^(٤٥) .

فأين نحن ، وأين العالم من هذا الإرهاب الذى يروج الأمنين ، ويقتل حتى الأبرياء الطيبين ؟!

وأين نحن ، وأين العالم من هذا «الفكر» الذى ينظر ويسرّر لهذا اللون من الإرهاب ؟!

- إن المسلمين لم يكونوا هم الذين أبادوا شعوب الهندو الحمر ... ودمروا حضاراتهم !

- وليسوا هم الذين استخدموا أسلحة الدمار الشامل - الذرية - فى إبادة المدنيين الأبرياء فى هيروشيما ونجازاكي باليابان سنة ١٩٤٥ م !

- وليسوا هم الذين سسموا تربة الأرض ... وأحرقوا الغابات ... وأبادوا ثلاثة ملايين من البشر فى فيتنام !

- ولا هم الذين قتلوا قرابة المليونين من الشهداء فى الجزائر ... !

- ولا هم الذين استخدموا اليورانيوم المنضب، والقنابل العنقودية، وسممو البيئة، وقتلوا عشرات الآلاف، بل ودمروا حتى كنوز الآثار الحضارية النادرة والتفيسة فى العراق ... !

- ولا هم الذين أبادوا سبعين مليوناً من البشر فى حربين استعمارييتين عالميتين شهدهما القرن العشرون ... !

- ولا هم الذين حولوا الكثير من بلاد الجنوب إلى مقابر للتفائيات الذرية المدمرة والمهلكة للحياة ... ! وجعلوا من حياة الأبرياء فى الجنوب ... ومن زراعاتهم حقول تجارب، ومصادر مكاسب للمبيدات الضارة ... والأسمدة الفاسدة ... والأدوية المتهية الصلاحيات ... !

لم يكن المسلمون - فى تاريخهم القديم والوسط والحديث والمعاصر - هم الذين فعلوا ذلك، ولا شيئاً من ذلك ...

ولو أن المسلمين قد أعدوا القوة التى أمرهم بها ربهم - سبحانه وتعالى - فى سورة الأنفال ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوُّ اللَّهِ وَعَدُوُّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠] ... واتخذوا أسباب القوة والمنعة والعزة، فأخافوا الطامعين فى ديارهم وثرواتهم، لما حدث هذا الإرهاب، الذى غدوا أولى ضحاياه فى هذا العالم الذى نعيش فيه ..

تلك هى حقيقة : الجهاد ... والقتال ... والإرهاب فى مصطلح العربية والقرآن والإسلام ... وصدق الله العظيم :

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يَحْسِنُونَ صَنَعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ
فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا
وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿الكهف: ١٠٣-١٠٦﴾.

الهوامش:

- (١) انظر : ابن القيم : (إعلام الموقعين عن رب العالمين) ج ٤ ، ص ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ طبعة بيروت ١٩٧٣ م . (والطرق الحكمية في السياسة الشرعية) ص ١٧-١٩ . تحقيق : د . جميل غازي . طبعة القاهرة ١٩٧٧ م .
- (٢) انظر في ذلك - وأمثاله - كتابنا (معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام) ص ٣-١٢ طبعة دار نهضة مصر - القاهرة ٢٠٠٤ م
- (٣) مكسيموس مونروند : (تاريخ الحروب المقدسة في الشرق المدعوة حرب الصليبي) المجلد الأول (ص ٤١٣) ترجمة : مكسيموس مظلوم . طبعة أورشليم ١٨٦٥ م - ولقد حافظنا على أسلوب الترجمة كما هو - رغم ركائته .
- (٤) المصدر السابق . المجلد الأول . ص ١٧٢-١٧٣ .
- (٥) سيجريد هونكه : (الله ليس كذلك) ص ٢٢ . ترجمة : د . غريب محمد غريب . طبعة دار الشروق - القاهرة ١٩٩٥ م .
- (٦) د . توفيق الطويل : (قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام) ص ٩٧-٩٨ . طبعة القاهرة ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م .
- (٧) المرجع السابق . ص ٧٣ .
- (٨) قارن ذلك بالقاعدة الإسلامية - التي أوردها حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (٤٥٠-٥٠٥ هـ ١٠٥٨-١١١١ م) - في كتاب (الاقتصاد في الاعتقاد) ص ١٤٣ والتي تقول : «ينبغي الاحتراز من التكفير ما وجد الإنسان إلى ذلك سبيلاً ، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة ، المصريحين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، خطأ ، والخطأ في ترك ألف كافر أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم» .
- (٩) (قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام) ص ٨١-٨٣ .
- (١٠) مجمع اللغة العربية (معجم ألفاظ القرآن الكريم) (طبعة القاهرة ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .

(١١) انظر - على سبيل المثال - : الجرجاني (التعريفات) طبعة القاهرة ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨ م .
والكفوى (الكليات) . تحقيق : د. عدنان درويش ، محمد المصري . طبعة دمشق
١٩٨٢ م .

(١٢) الراغب الأصفهاني : (المفردات في غريب القرآن) طبعة القاهرة ١٩٩١ م .

(١٣) (الله ليس كذلك) ص ٤٠ ، وانظر كتابنا : (الإسلام في عيون غربية) ص ٣٢٥ ، طبعة
دار الشروق - القاهرة ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥ م .

(١٤) (الأعمال الكاملة) ج ٥ ، ص ١٠٧ طبعة بيروت ١٩٧٢ م .

(١٥) (الأعمال الكاملة) للإمام محمد عبده ، ج ٤ . ص ٦٩٥-٦٩٧ . دراسة وتحقيق : د.
محمد عمارة . طبعة دار الشروق - القاهرة ١٩٩٣ م .

(١٦) انظر في تفصيل ذلك كتابنا (الإسلام والحرب الدينية) ص ٣٢-٣٩ . طبعة مكتبة
الشروق الدولية - القاهرة ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥ م .

(١٧) د. نصر حامد أبو زيد - مجلة (وجهات نظر) القاهرة - يناير ٢٠٠٢ م . مقال
«الإسلام والغرب : حرب الكراهية» .

(١٨) د. محمد حميد الله الحنيدري - محقق - (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي
والخلافة الراشدة) ص ١٦-٢١ - طبعة القاهرة ١٩٥٦ م .

(١٩) المصدر السابق . ص ١١١ .

(٢٠) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج ٨ ، ص ١١٤ ، طبعة دار الكتب المصرية - القاهرة .

(٢١) (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) ص ١٢٥ .

(٢٢) المصدر السابق . ص ٣٢٦ .

(٢٣) المصدر السابق . ص ٣٢٨ .

(٢٤) المصدر السابق . ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ . وانظر كذلك : (تاريخ الطبري) ج ٤ ، ص ١٥٢ -
١٥٥ . تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم . طبعة دار المعارف - القاهرة ١٩٧٠ م .

(٢٥) أبو يوسف (كتاب الخراج) ص ١٣٨-١٣٩ . طبعة القاهرة ١٣٥٢هـ . وانظر كذلك
: البلاذري (فتوح البلدان) ص ١٨٩ . تحقيق : د. صلاح الدين المنجد . طبعة القاهرة
١٩٥٦ م .

- (٢٦) أبو عبيد القاسم بن سلام (كتاب الأموال) ص ١٥٦ ، طبعة القاهرة ١٩٦٨ م . أبو يوسف (كتاب الخراج) ص ١٢٠ .
- (٢٧) (تاريخ الطبري) ج ٤ ، ص ١٥٦ .
- (٢٨) يوحنا النقيوسي : (تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي . رؤية قبطية للفتح الإسلامي) ص ٢٠١-٢٠٢ . ترجمة ودراسة : د. عمر صابر عبد الجليل . طبعة القاهرة ٢٠٠٠ م .
- (٢٩) د. صبرى أبو الخير سليم : (تاريخ مصر فى العهد البيزنطى) ص ٦٢ ، طبعة القاهرة ٢٠٠١ م .
- (٣٠) (تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي) ص ٢٢٠ .
- (٣١) (الله ليس كذلك) ص ٤٠-٤٣ .
- (٣٢) جيوم (الفلسفة وعلم الكلام) دراسة منشورة بكتاب (تراث الإسلام) تصنيف أرنولد . ص ٣٦٣- ترجمة : جرجيس فتح الله . طبعة بيروت ١٩٧٢ م .
- (٣٣) صحيفة (الحياة) - لندن - فى ٢٩ / ٢ / ٢٠٠٣ .
- (٣٤) صحيفة (الشرق الأوسط) - لندن - فى ٨ / ٣ / ٢٠٠٣ م .
- (٣٥) صحيفة (العربى) - القاهرة - فى ١٦ / ٣ / ٢٠٠٣ م .
- (٣٦) صحيفة (الشرق الأوسط) - لندن - فى ١٠ / ٣ / ٢٠٠٣ م .
- (٣٧) صحيفة (الحياة) - لندن - فى ١٥ / ٣ / ٢٠٠٣ م .
- (٣٨) (نيوزويك) - الأمريكية - عدد ١١ / ٣ / ٢٠٠٣ م .
- (٣٩) (نيوزويك) - العدد السنوى - ديسمبر ٢٠٠١ م - فبراير ٢٠٠٢ م .
- (٤٠) مجمع اللغة العربية : (معجم العلوم الاجتماعية) طبعة القاهرة ١٩٧٥ م .
- (٤١) صحيفة (الشرق الأوسط) - لندن - فى ٣ / ٢ / ٢٠٠٢ م ، وصحيفة (الحياة) - لندن - فى ٢٦ / ٢ / ٢٠٠٢ م ، وصحيفة (الأهرام) - القاهرة - فى ١١ / ١٢ / ٢٠٠٢ م .
- (٤٢) صحيفة (الأهرام) - القاهرة - فى ٣ / ٣ / ٢٠٠٣ م والأهرام ينقل عن مقال : «زخارى كاريل» فى «نيوزويك» الأمريكية - بتاريخ ١٤ / ١ / ٢٠٠٢ م .
- (٤٣) صحيفة (الشرق الأوسط) - لندن - فى ١٤ / ٢ / ٢٠٠٢ م .

(٤٤) من حديث لچاك بيرك في ٢٧ / ٦ / ١٩٩٥ م . انظر : حسونة المصباحي (العرب والإسلام في نظر المستشرق الفرنسي جاك بيرك) صحيفة (الشرق الأوسط) - لندن - في ١ / ١١ / ٢٠٠٠ م .

(٤٥) إسرائيل شاحاك : (الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود) ص ١٣٤ - ١٣٥ . ترجمة : حسن خضر . طبعة دار سينما - القاهرة ١٩٩٤ م .

المصادر والمراجع

- ابن القيم : (إعلام الموقعين) طبعة بيروت ١٩٧٣ م
(الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية) تحقيق : د. جميل غازى . طبعة
القاهرة ١٩٧٧ م.
- أبو عبيد بن سلام : (كتاب الأموال) طبعة القاهرة ١٩٦٨ م.
- أبو يوسف : (كتاب الخراج) طبعة القاهرة ١٣٥٢ هـ .
- إسرائيل شاحاك : (الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود) ترجمة : حسن خضر .
طبعة القاهرة ١٩٩٤ م.
- د. توفيق الطويل : (قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والإسلام) طبعة القاهرة
١٩٩١ م.
- الجرجاني - الشريف : (التعريفات) طبعة القاهرة . ١٩٣٨ م.
- چيوم : (الفلسفة وعلم الكلام) بحث منشور بكتاب (تراث الإسلام) - تصنيف
أرنولد - ترجمة : جرجيس فتح الله - طبعة بيروت ١٩٧٢ م.
- الداغب الأصفهاني : (المفردات فى غريب القرآن) طبعة القاهرة ١٩٩١ م.
- سيجريد هونكه : (الله ليس كذلك) ترجمة : د. غريب محمد غريب . طبعة دار
الشروق القاهرة ١٩٩٥ م.
- د. صبرى سليم أبو الخير : (تاريخ مصر فى العصر البيزنطى) طبعة القاهرة
٢٠٠١ م.

- الطبرى : (تاريخ الطبرى) تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم - طبعة دار المعارف القاهرة ١٩٧٠ م
- الغزالى - أبو - حامد : (الاقتصاد فى الاعتقاد) طبعة مكتبة صبيح - القاهرة - بدون تاريخ .
- القرطبى : (الجامع لأحكام القرآن) طبعة دار الكتب المصرية - القاهرة
- الكفوى - أبو البقاء : (الكليات) تحقيق : د. عدنان درويش ، محمد المصرى . طبعة دمشق ١٩٨٢ م .
- مجمع اللغة العربية - القاهرة : (معجم ألفاظ القرآن الكريم) طبعة القاهرة ، ١٩٧٠ م .
- (معجم العلوم الاجتماعية) طبعة القاهرة ، ١٩٧٥ م .
- محمد حميد الله - محقق - : (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة) طبعة القاهرة ١٩٥٦ م .
- محمد عبده - الإمام - : (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) طبعة دار الشروق - القاهرة ١٩٩٣ م .
- د. محمد عمارة : (معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام) طبعة دار نهضة مصر - القاهرة ٢٠٠٤ م .
- (الإسلام فى عيون غربية) طبعة دار الشروق - القاهرة ٢٠٠٥ م .
- (الإسلام والحرب الدينية) طبعة مكتبة الشروق الدولية - القاهرة ٢٠٠٥ م .
- مكسيموس مونروند : (تاريخ الحروب المقدسة فى الشرق المدعوة حرب الصليب) ترجمة مكسيموس مظلوم . طبعة أورشليم ١٨٦٥ م .
- د. نصر حامد أبوزيد : مجلة (وجهات نظر) - القاهرة - عدد يناير ٢٠٠٢ م .
- يوحنا النقيوسى : (تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى) - حمة ودراسة : د. عمر صابر عبد الجليل . طبعة القاهرة ٢٠٠٠ م .

* دوريات

* (الأهرام) - القاهرة -

* (الحياة) - لندن -

* (الشرق الأوسط) - لندن -

* (العربي) - القاهرة -

* (نيوزويك) - أمريكا -

رقم الإيداع ٢٠٠٥ / ٢٠٩٨٨

الترقيم الدولي I.S.B.N. 977-09-1450-9

السماحة الإسلامية

• في أول لقاء للدولة الإسلامية مع النصرانية.. كتب رسول الله ﷺ لأهلها عهداً جاء فيه: «لهم جوار الله وذمة رسوله.. أن أحرس دينهم بما أحفظ به نفسي وأهل الإسلام من ملتي.. لأنني أعطيتهم عهد الله أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم».

• ولقد استمرت هذه السماحة سنة مرعية عبر تاريخ الإسلام. فالفتوحات الإسلامية حررت الأوطان.. والضمان من القهر الروماني والذي استمر عشرة قرون.. حتى لقد اعتبرها المؤرخون النصارى «إنقاذاً للنصرانية.. وعقاباً إلهياً للرومان».

• ولقد ظل «جهاز الدولة، بيد أهل البلاد.. حتى قال المستشرق الألماني الحجة «أدم متر».. لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام».

• والآن.. يهيمن الغرب على عالم الإسلام.. وينشر فيه قواعده العسكرية.. وينهب ثرواته الاقتصادية.. ويمارس تغريب الثقافة والتعليم.. ويجعل من الأقليات «قبيحاً» يصادر حق الأمة في الاحتكام إلى خصوصياتها الدينية والثقافية..

• ومع كل ذلك.. يتحدثون عن «السماحة الغربية».. وعن «تعصب الإسلام».. وهي القضية التي يصدر لها الجثث هذا الكتاب؟

حقيقة الجهاد.. والقتال.. والإرهاب

• إن خلط المفاهيم - مفاهيم «الجهاد».. و«القتال».. و«الإرهاب» - إنما يعيد تمثيل قصة الذنب والحمل على مسرح الواقع الذي نعيش فيه..!

• فالغرب الاستعماري، الذي يحتل الكثير من بلاد الإسلام.. ويمارس الإيذاء ضد الكثير من الشعوب الإسلامية.. والذي يدمر البيئة.. ويحول بلادنا إلى مقابر للبنايات القتالية.. والذي يندس مقدساتنا.. ويعيث بمناهج تعليمنا.. ويحرم شعوبنا من حقها في تقرير المصير... هذا الغرب الاستعماري، هو الذي يتهم الإسلام وأُمَّته بالإرهاب!!..

• وإذا كان الوعي بحقائق «الضكر».. و«الواقع».. و«التاريخ»، هو جزء من العدة والعتاد في هذه المعركة التي فرضها علينا مشروع الهيمنة الغربي.. ندفع في هذه المعركة التي فرضها علينا مشروع الهيمنة الغربي.. ندفع بها الظلم عن إسلامنا وأمتنا.. ونكسب بها الأصدقاء - حتى في البلاد الغربية.. ذاتها - فإن جلاء حقائق المفاهيم - مفاهيم «الجهاد».. و«القتال».. و«الإرهاب» - إنما يمثل «معركة فكرية».. ميدانها صفحات هذا الكتاب..

